

## الفصل السابع

### أعلام الكتاب

١

#### إبراهيم<sup>(١)</sup> بن العباس بن محمد المولى

كان جده صول حاكماً لجرجان مع أخيه فيروز ، وكانا تركيين يدينان بالمجوسية ويتشبهان بالفرس ، ودخل صول الإسلام على يد يزيد بن المهلب وإلى خراسان للحجاج ، وأصبح من خاصته ، حتى إذا ثار يزيد على بنى أمية في مطالع القرن الثاني الهجرى حارب تحت لوائه حتى قُتل معه في موقعة العقر بالقرب من الكوفة . وكان ابنه محمد من رجال الدولة العباسية ودُعاهما ، ونشأ له ابنه العباس في ظلال تلك الدولة ، ورزق ولدين : عبد الله وإبراهيم ، وكان عبد الله أكبر سنّاً من أخيه . وقد وُلد لإبراهيم سنة ١٧٦ للهجرة ، وقيل بل سنة ١٦٧ ويقول مترجموه إن أمه كانت أخت العباس بن الأحنف الشاعر المشهور ، وكأنه هو وأخاه تأدبا عليه في باكورة حياتهما ، كما تأدبا على ابن عمهما عمرو بن مسعدة الكاتب المشهور في عصر المأمون . ومن المؤكد أن إبراهيم لزم - على عادة ليداته - حلقات العلماء والشعراء حتى أصبح يُتقن العربية ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة . وكان أخوه عبد الله سبقه إلى العمل مع ابن عمه عمرو بن مسعدة في دواوين الفضل بن سهل الملقب بذي الرياستين وزير المأمون ، حين كانا لا يزالان في مرو قبل تحول المأمون

دار المعارف) ص ١٣٦ وابن خلكان في إبراهيم وتاريخ الطبري في ترجمة المتوكل وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت ، وديوانه بتحقيق عبد العزيز الميمنى في كتاب الطوائف الأدبية طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(١) انظر في ترجمة إبراهيم بن العباس ورسائله وشعره وأخباره الأغاني (طبع دار الكتب) ٤٣/١٠ والفهرست لابن النديم ص ١٨٢ وتاريخ بغداد ١١٧/٦ ومعجم الأدباء لياقوت ١/١٦٤ ومروج الذهب ٤/٢٣ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع

إلى بغداد . ويبدو أن إبراهيم أراد الالتحاق بأخيه وابن عمه وعملهما ، فرحل إليهما ، وتصادف حين وصوله أن كان المأمون قد عهد بالخلافة من بعده إلى علي بن موسى الرضا . ويمدح إبراهيم ولي العهد الجديد ، ويهبه عشرة آلاف درهم من دراهم كانت ضربت باسمه ، ويقال إنه احتفظ بها وجعل منها مهور نسائه ، وأبقى بعضها لكفنه فيما بعدُ وجهأزه إلى قبره<sup>(١)</sup> . وألحقه الفضل بن سهل بدواوينه ، ومن حينئذ ظلَّ يعمل في الدواوين إلى أن توفي سنة ٢٤٣ وهو على ديوان النفقات والضياح للمتوكل ، ويقول صاحب الفهرست : « كان إليه ديوان الرسائل في مدة جماعة من الخلفاء »<sup>(٢)</sup> .

وقد ترك الدواوين مدة قصيرة لعهد الواثق جرّت عليه بلاء عظيماً ، ذلك أن ابن الزيات الوزير - وكان صديقاً له - ولأه على معونة الأهواز وخراجها ، ثم تنكّر له ، فوجه إليه بمحاسب كبير يسمى أبا الجهم ليكشفه ، فتحامل عليه تحاملاً شديداً ، وقال إن أموالاً كثيرة لم تُؤدَّ إلى بيت الخراج ، وغضب ابن الزيات ، وأمر بعزله واعتقاله في ولايته . وكانت محنة كبيرة لإبراهيم لم يسبّل فيها صديقه ابن الزيات وحده ، بل بلاءً فيها كثيراً من الأصدقاء ومن كانوا يظهرون له المودة ، إذ قسّبت له منهم جماعة ظهر المجنّ مثل أحمد بن المدبر ، الذي كان يرغز صدر ابن الزيات عليه ويحثه على محاسبة عمّاله واستخراج الأموال منهم ، مما جعله يزهده فيما بعد في صحبة الإخوان والرفقاء وكان إذا سُئل في ذلك قال : « ما مشلّ الإخوان إلا كمثل النار قليلها مقنعٌ وكثيرها محرقٌ أو قليلها متاعٌ وكثيرها بوارٌ » . ولعل ذلك ما جعله ينظم أشعاراً كثيرة في الصداقة والصديق ، كأنما يريد أن يرسم واجباتها ومسئولياتها . ولم يعدم بعض الإخوان الذين كانوا يشفعون له عند ابن الزيات وهو ماض في النكابة به ، وقد كتب إليه شعراً ونثراً كثيراً يستعطفه ، ومن أطرف ما كتب له هذه الرسالة<sup>(٣)</sup> :

« كتبتُ إليك وقد بلغت المديّة المَحَرَّ ، وعدت الأيام بك على بعد  
عند وى بك علينا ، وكان أسوأ ظني وأكثرُ خوفي أن تسكن في وقت حركتها ،

(٣) الأغاني ١٠/٥٦ ومعجم الأدباء ١/١٧٠ :

(١) الأغاني ١٠/٥٢ .

(٢) الفهرست ص ١٨٢ .

وتكفَّ عند أذاها ، فصرتَ على أضرَّ منها ، وكفَّ الصديق عن نصرتي  
وبادر إلى العدوُّ تقرُّباً إليك . وكتب تحت ذلك :

أخُّ بني وبين الله ر صاحبَ أينَا غلبَا  
صديقي ما استقام فإنَّ نبَا دهرُ على نبَا  
وكتبتُ على الزمان به فعاد به وقد وثبَا  
ولو عاد الزمان لنا لعاد به أحمأ حديبا

والرسالة توضح شخصيته الأدبية فهو كاتب شاعر ، ويقول المسعودي : « كان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً ، لا يُعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتاب أشعر منه »<sup>(١)</sup> . ويقول ابن الجراح في كتابه الورقة : « أشعر نظرائه الكتاب وأرقهم لساناً ، وأشعاره قصار ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة ، وهو أنعت الناس للزمان وأهله غير مدافع »<sup>(٢)</sup> ويقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان يقول الشعر ثم يختاره ، ويُسقط رذله ، ثم يسقط الوسط ، ثم يسقط ما سبق إليه ، فلا يدع من القصيدة إلا اليسير ، وربما لم يدع منها إلا بيتاً أو بيتين »<sup>(٣)</sup> . وشعره مقطوعات حقاً ، ولكنها مقطوعات ترقى إلى مرتبة رفيعة في البلاغة ، مشكلها مثل هذه الرسالة القصيرة التي كتب بها لابن الزيات راجياً أن يخلصه من محنته ، فكل كلمة فيها قد اختارها ذوق أدبي مصفى ، وكل عبارة قد أحكمت ، أحكمتها يد صناع ، فالمديية قد بلغت المحز كناية عن بلوغ المحنة الحد الأقصى ، والأيام تعدو بابن الزيات عليه بعد أن كان يعدو به عليها ، لقد كان ينتصر به عليها ، فإذا هي تقهره به ، وما أدق قوله له في رسالة أخرى<sup>(٤)</sup> :

و كنت أعدك للنائبَاتِ فها أنا أطلب منك الأمانا

فناصره أصبح قاهره . ويتوالى الطباق في الرسالة ، فالسكون يقابل الحركة والكف يقابل المبادرة والصديق يقابل العدو . وظل ابن الزيات لا يعفو عنه ، حتى بلغ منه كل مكروه ، ثم عرف الواثق تحامله عليه وأنه مظلوم فيما نسبه إليه

(٣) الأغاني ١٠ / ٤٣ .

(١) مروج الذهب ٤ / ٢٣ .

(٤) الأغاني ١٠ / ٥٧ ومعجم الأدباء ١ / ١٧١ .

(٢) كتاب الورقة ص ١٣٦ .

أبو الجهم ، فأمر ابن الزيات بردّ حريته إليه وانتظامه في حاشيته وبلاطه مصوناً ، فبسط لسانه في غريمه ونظم فيه أشعاراً كثيرة دامتاً حاجياً . وقد يكون ما حدث بينه وبين ابن الزيات هو الذي جعل المتوكل يقربه منه منذ أول عهده بالخلافة ، فقد كان بدوره ينتقم على ابن الزيات أشياء كثيرة ، فلم يكد يتقلّد الخلافة حتى صادر أمواله ، وعذبه في تسور مليء بمسامير من الحديد حتى مات .

وأصبح إبراهيم بن العباس حطّياً عند المتوكل ، فقلّده ديوان رسائله ودواوين مختلفة ، وظل حتى وفاته يكتب عن المتوكل كل الكتب التي تصدر عنه ، سواء أكانت منشورات أم عهداً لأولياء العهد أم فتوحاً أم تهنئات بالأعياد أم تعازي باسم الخليفة ، وأحياناً ينصّ الطبري أن هذا الكتاب أو ذلك من إنشائه ، وأحياناً لا ينصّ . ومن أوائل ما كتب له المنشور الموجه إلى عمّاله في الآفاق بشأن النصاري وأهل الذمة وأخذهم بلبس الطيب السستة والزّنابير ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع ، وهو يستهله على هذه الشاكلة (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعزّته التي لا تحاول وقدّره على ما يريد ، اصطفى الإسلام ، فرضيه لنفسه ، وأكرم به ملائكته ، وبعث به رسلاً ، وأبّد به أوليائه ، وكنفه بالبير ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مبرأ من الشبهات ، معصوماً من الآفات ، محبوباً بمناب الخير ، مخصوصاً من الشرائع بأظنهرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدتها ، وأكرم أهله بما أحلّ لهم من حلاله ، وحرم عليهم من حرامه ، وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه ، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه ، وأعدّ لهم من سعة جزائه وثوابه ، فقال في كتابه فيما أمر به ونهى عنه ، وفيما حضّ عليه فيه ووعظ : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) » .

وواضح من هذا الاستهلال للمنشور مدى ما كان يأخذ به إبراهيم بن العباس نفسه من الاحتفال بصناعة الكلام . فهو لا يكتب ما يردّ على ذهنه عنثواً ،

بل هو يفكر فيما يكتب ، ويختار له الألفاظ الجزلة الناصعة مُحدّثا بينها ضرورياً من التلاؤم بحيث يبدو كلامه مقطّعاً ، وإن لم يتخذ شكل تقطيع السجع ، وهو بذلك أقرب إلى ذوق أسلوب الازدواج الذي يوازن بين العبارات دون أن يُحيلها سجعاً وتنميقاً خالصين . وكان من أحداث خلافة المتوكل ثورة إسحق بن إسماعيل في شماليّ أرمينية وإحراقه لمدينة تفليس سنة ٢٣٨ وقد نازلته جيوش المتوكل ، وهزمته هزيمة ساحقة ، وأُخذَ أسيراً ، فضربت عنقه وصُلبت جثته وحُمل رأسه إلى سامراء . ولإبراهيم بن العباس رسالة في هذا الفتح نوّه بها القدماء ، وفيها يقول (١) :

« قسم الله عدوه أقساماً ثلاثة : روحاً معجّلة إلى عذاب الله ، وجثّة منصوبة لأولياء الله ، ورأساً منقولاً إلى دار خلافة الله ، استنزّلوه من معقل إلى عقال (أغلل) وبدّلوه آجالاً من آمال ، وقديماً غدّت المعصية أبناءها ، فحلبت عليهم من درّها (ابنّها) مرّضة ، وبسطت لهم من أمانيتها مطمعة ، وركبت بهم مخاطرها موضّعة (مسرعة) حتى إذا وثقوا فأمنوا ، وركبوا فاطمأنوا ، وانقضى رضاء وأن فِطام ، سقتهم سُماً ، ففجّرت مجارى ألبانها منها دمّاً ، وأعقبتهم من حُلُو غذائها مرّاً ، ونقلتهم من عز إلى ذل ، ومن فرحة إلى تروحة ، ومن مسرة إلى حسرة ، قتللاً وأسراً ، وغلبة وقسراً ، وقيل من أوضع (أسرع) في الفتنة مرّهجاً (مثيراً) واقتحم لهبها مؤجّجاً ، إلا استلحّ حسنته (تبعته) آخذة بمخنّقه (بخلقه) وموهنة بالحق كيدته حتى جعلته لعاجله جزراً ، ولأجله حطياً ، وللحق موعظة ، وعن الباطل مزجرة ، وأواثك لهم خيزى في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر ، وما ربك بظلام للعبيد .»

وبلاغة الصول التي اشتهر بها واضحة في هذه الرسالة ، فهو يُعنى بكلامه محملاً له معاني غزيرة ، ومُطرفاً فيه بكل ما يستطيع من تقسيم على نحو ما صنع أول هذه المقرة . وهو يضيف إلى ذلك مقابلة بين المعاني تنتهي إلى الطباق ، فقد كان إسحق بن إسماعيل في معقل فأصبح في عقال ، وكان في آمال وحياة رغدة فأصبح في آجال وموت رهيب . ويضيف إلى ذلك الصور ، فقد أرضعتهم

المعصية من لبنها وأطمعتهم باسطة لهم في الأمانى العذاب ، وأسرعت بهم مخاطرهما . وكل تلك صور متلاصقة . ثم يسوق عبارة كأنها مثل من الأمثال ، إذ يقول . انفضى رضاع وآن فطام . والكناية واضحة . وعاد إلى التصوير ، وكأنما يريد أن يرسم لوحة ذات خطوط وظلال وأصواء . ويعود إلى الطباق ، فيضع الرضاع مع الفطام والمر مع الحلو والذل مع الغز والترحة مع الفرحة والحسرة مع المسرة . ثم يعود ثالثة إلى التصوير ، وكأنما الفتنة جحيم يتأجج باللهب ، وتعم حتى لتأخذ بمخنق كل شخص ، وحتى تجعله في دنياه جزراً وقطعاً من اللحم تنوشها السباع ، أما في الآخرة فتجعله حطباً ووقوداً للنار . وينخم الفقرة بأى من القرآن . والطباق اللون البديعي العقلي الذى كان يروع العباسيين يكثر فيها ، كما يكثر التصوير ، وكأن إبراهيم بن العباس يريد أن يثبت إبداعه باستخدام فنون البديع التي كانت تخلب معاصريه ، فهو يبدؤها بالتقسيم ، وهو يشيع فيها الجناس كما يشيع الطباق على نحو ما يتضح في مثل : معقل وعقال وآجال وآمال ، وفرحة وترحة وأسراً وقسراً وعاجل وآجل . ومضى يوغل في الموازنة بين عباراته ، وإذا هو لا يكتفى بما قد يحدث فيها من تقطيعات صوتية ، إذ يطلب ازدياداً في التلاؤم وفي الجرس ، فليس يكتفى أن تتقابل العبارات وتوازن ، بل يحسن أن تلتحم نغماتها وإراناتها ، فإذا هو يكثر من السجع وترصيفه . واحتفظت كتب الأدب بتحميده لهذه الرسالة ، وهو يمضى فيه على هذا النحو<sup>(١)</sup> :

« الحمد لله معز الحق ومُبدِله (ناصره) وقامع الباطل ومُزِيله ، الطالب فلا يفوته من طلب ، والغالب فلا يعجزه من غلب ، مؤيد خليفته وعبده ، وناصر أوليائه وحزبه ، الذين أقام بهم دعوته ، وأعلى بهم كلمته ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقه ، وجاهد بهم أعداءه ، وأثار بهم سبيله ، حمداً يتقبله ويرضاه ، ويوجب أفضل عواقب نصره ، وسوايق نعمائه » .

والتحميد يحمل نفس الخصائص الماثرة في الرسالة ، وفيه اتجاه واضح نحو السجع وأن الكاتب يريد أن يسلط كلامه الأسماع والآذان ، كما يسلط العقول والأذهان ، بملااماته بين الكلمة والكلمة في الجرس ، وبما يستخدم من طباقات

وجناسات وتصويرات مختلفة . ولم تصلنا رسالة الخميس التي كتب بها إلى الولايات المختلفة بتولى المتوكل الخلافة ، ولكن وصلنا التحميد الذي وضعه في صدرها على هذا النحو (١) :

« أما بعد فالحمد لله الذي جعلت نعمه ، وتظاهرت منسئه ، وتتابعت أياديته ، وعمم إحسانه ، إله كل شيء وخائيقه ، وبارئهم ومصوره ، والكائن قبله ، والباقي بعده ، كما قال في كتابه : ( كلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) العالی فی مشیتہ والقاهر فوق عباده المتعالی عن شبه خلقه : ( ایس کئله شیء وهو السميع البصير ) خلق العباد بقدرته ، وهداهم برحمته ، وأوضح لهم السبيل إلى معرفته ، بما نصّب لهم من دلائله ، وأراههم من عبرته ، وصرّفهم فيه من صنعه ، كما قال جلّ جلاله : ( الذي أحسن كلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وابتدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نَسْلَهُ من سُلَالَةٍ من ماءٍ مَهِينٍ ، ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدة قليلاً ما تشكرون ) . وذلك كله من خلقه إياهم بتمثيله ما مثّل لهم من الدلائل التي نصبها لهم والأعلام التي جعلنا إزاء قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، ويسرّ لهم خواطرهم وفكرهم ، والهئية التي هيأها لهم ، ليقع الأمر والنهي عليهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يجشدهم ما يقصّر عنه وسعهم ، نظراً منه تبارك وتعالى إليهم ، ورحمةً بهم ، ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحققوا به رحمته ورضوانه والجاود في النعيم المقيم والظلّ المديد والعيش اللدائم ، كما قال تعالى ذكره : ( إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ لَمِنَ الْخَالِقِينَ ) . وكان من نظره ورافته بهم أن بعث فيهم أنبياء ورسله ، يدعونهم إلى طاعته ، ويبينون لهم هُداياه ، ويوضحون لهم سبيله ، ويهدونهم إلى رحمته ، ويعلمونهم ثوابه ، وينذرونهم عقابه ، ويتبسّطون لهم توبته ، ويحدرونهم سخطه ، ويبينون لهم سننّه وشرائعه ، ويكشرون لهم مواعظه ، ويعلمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ( لِيَهْتَدِيَكَ مَنَ هَدَاكَ عَن هَلَاكِ عَيْنٍ بَيِّنَةٍ وَيُرْحِمَكَ مَنَ حَتَّى عَن بَيِّنَةٍ وَإِنِ اللَّهُ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ) وكان من رافته بهم ونظره لهم أن بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة ، والأعلام البَيِّنَةِ ، والشواهد الناطقة التي أظهر بها صدقهم ، وأقام بها

برهانهم ، وأوضح بها دليلهم ، وأثابهم عمل سواهم ليكون أدعى لهم إلى تصديقهم والقبول عنهم ، وأؤكد للحجة على من أبى ذلك منهم .

والتحميد يدور على موضوعين أساسيين هما : نعم الله وآلاؤه على الناس إذ بسط لهم الأسباب في الهدى والرشاد ، ونعمه أيضاً وآلاؤه إذ أرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين . ونراه في مستهل تحميده يشير إلى تنزيه الله عن شبه خلقه ، وهو أصل من الأصول الأساسية عند المعتزلة ، فهو منزّه عن التحيز في جوهر وعرض ، لا يدركه حس ولا يحيط به خيال ، منزّه عن كل شبه بالآدميين في خصالهم وصفاتهم . وليس من الضروري أن يكون من المعتزلة ، فيكفي أن يكون على صلة بمباحثهم ، وهو ما نريد إثباته ، فالتحميد كله كأنما كتبه اعتزالى كبير إذ كانوا يتكلمون كثيراً عن تنزيه الله في صفاته وذاته وإبداعه للكون والإنسان بما يشهد بعظمته وقدرته . وكانوا يستمدون ذلك كله من القرآن وما دعا إليه من التأمّل في النظام الكونى وما بتّ الله فيه من آيات تدل على وحدانيته وقدرته الباهرة . ويصوّر القرآن كما في آيات خلق الإنسان التي اقتبسها الصولى كيف أنشأ الله الخلق إنشاءً بدعيّاً وكيف أودع فيهم من ملكات السمع والبصر والأفئدة ما يحقق لهم جميع حاجاتهم وكما لا تنهم ، وإنه لحرى بهم أن يستغلوا هذه الملكات ليستقر في نفوسهم الإيمان بالكائن الأعلى . ويبث الصولى هذه الفكرة في الشطر الأول من تحميده . ويخرج منها إلى الفكرة التي طالما كررها المعتزلة فكرة أنه كان من رحمة الله بالناس أن أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى طريق الحق والخير ، إذ لم يخلقهم عبثاً ولا دون غاية سامية ، فقد خلقهم ليتبعوا هداه ، وليقع الأمر والنهى عليهم ، فكان لا بد لهم من رسل يوضحون لهم سبل الهدى ، حتى يعرفوا العمل الصالح وما ينتظرهم في الآخرة من ثواب وعقاب ، مبينين لهم السنن والشرائع التي تكفل لهم السعادة في الدارين ، وكيف أن من يجور عن الطريق يحق عليه العذاب لإلّا من تاب وأتاب فإن الله غفور رحيم . وقد صاغ إبراهيم بن العباس هذه المعاني في ألفاظ جزاة رصينة ، يجرى فيها التقطيع الصورى الذى ذكرناه آنفاً ، وإن لم يبلغ مداه في الرسالة السابقة ، إذ لم يتحول به إلى إرنانات السجع التي شاعت فيها ، وكأنما كان مشغولاً هنا عن السجع بالمعاني التي أثارها في تحميده والتي جعلته يتمثل ببعض

آى الذكر الحكيم . وبالمثل كان مشغولاً عن الجناسات والطباقات والصور إلا ما جاء في النادر وعفو الخاطر . ومن تحميداته في أحد الفتوح (١) :

« الحمد لله الغالب ذى القدرة ، والقاهر ذى العِزَّة ، الذى لم يقابل بالحق باطلاً في موطن من مواطن التحاكم بين عبادته إلا جعل أولياء الحق منهم حِزبه وجنُده ، وجعل الباطل بهم فتلاً ( هزيمًا ) منكوبًا ، ودَحِيضًا ( باطلاً ) زهوقًا إن نهض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مفرقةً ما جُمِع ، ومبترةً ( مستأصلة ) ما أعدت ، وقائدة بأشياعه إلى مَصْرَعِ الظالمين ، حتى يكون الحق الطالب الأعزُّ والباطلُ المطلوب الأذلُّ ، وأولياء الحق الأعْلَسِينَ يَدًا وأَيْدِئًا (قوة) وأشياعُ الضلال الأُخْسَرِينَ أعمالًا وكيدًا ، قضاءُ الله وسنته ، وعادةُ الله وإرادته ، في الفئته المنصورة أن تَعِزَّ فلا تُرَام ، وأن يَمَكِّنَ لها في الأرض كما مَكَّنَ للذين من قبلها ، وفي الفئته الناكبة عنه أن تذلَّ ، فتكهنَ كلمتها السفلى وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم » .

ونحنُ قد درته على اصطفاء الكلمات في هذا التحميد ، ولا نصل إلى قوله : « وجعل الباطل بهم فتلاً منكوبا ودَحِيضًا زهوقًا » ، حتى يتجسَّد لنا هذا الاصطفاء وأن الكاتب يُعْنَى بالموازنة الدقيقة بين العبارات . ويتضح لنا ذلك أكثر حين نصل إلى قوله : « يكون الحق الطالبُ الأعزُّ ، والباطلُ المطلوبُ الأذلُّ ، وأولياءُ الحق الأعْلَسِينَ يَدًا وأَيْدِئًا ، وأشياعُ الضلال الأُخْسَرِينَ أعمالًا وكيدًا » وكأن العبارات توضع في صفوف لا في سطور ، لتأخذ كل كلمة بيد أختها ، وكأننا في مرقص للكلمات تتشابك فيه أيديها ، فكل كلمة توشك أن تُمسك بيد أختها في العبارة التالية لعبارتها . فكلمة الحق تتلاقى مع كلمة الباطل ، وتتلاقى كلمة الطالب مع كلمة المطلوب وكلمة الأعز مع كلمة الأذل . وبالمثل تتلاقى في العبارتين التاليتين كلمة الحق وكلمة الضلال وكلمة الأعْلَسِينَ يَدًا وكلمة الأُخْسَرِينَ أعمالًا . فالكلمات في العبارات تتجاذب تتجاذبًا شديدًا ، في الصوت والجرس والأداء وفي المعاني المتقابلة المتناقضة ، فقد عمَّ فيها الطباق وكأنما أحدث بكثرته بينها نوعًا من صلة القُرْبى وشائج الرحم . وانظر كيف وضع لإبراهيم بن العباس كلمة « يدًا »

بجانب كلمة «أبدأ» طلباً للتلاؤم في الجرس الذي قد يخفى أحياناً ، وأحياناً يتضح وضوح الشمس في كبد السماء . وفي ذلك ما يدل بوضوح على مدى إحكامه لصنعة الكتابة وقدرته على اختيار اللفظ وانتخابه بحيث يروق اللسان والحنان . وينسب إلى الرسالة باقتباس من القرآن الكريم ، ويكثر عنده اصطناعه لبعض ألفاظه الموقفة كقوله في هذا التعميد : «الأخسرين أعمالاً» . ودائماً نحس عنده القدرة على استخدام العبارة المُطنَّبة والأخرى الجملة الموجزة ، حتى لكأنما يصوغ أمثالا كما أشرنا إلى ذلك آنفاً . ومن خير ما يصور ذلك عنده رسالة كتب بها لسنة ٢٤٠ عن المتوكل إلى أهل حمص حين ثاروا على عامل المعونة وقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوا صاحب الخراج من مدينتهم ، والرسالة تمضى على هذا النمط (١) :

« أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه ، مما قوم به من أودٍ (عوج) وعدل به من زبغ ، ولم به من منتشر ، استعمال ثلاث ، يقدم بعضهن على بعض ، أولهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التي لا يقع حسمُ الداء بغيرها :

أناةٌ فإن لم تُغنِ عَقَبَ بعدها وعيداً فإن لم يُغنِ أَعْنَتِ عَزَائِمُهُ

وقرأ إبراهيم بن العباس الرسالة على المتوكل فلأثت نفسه إعجاباً ، وأوأ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان - وكان حاضراً - أما تسمع ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلةٌ نخبأها الله لك ، وذخيرةٌ ذخَّرها على دوتك . ويقال إن البيت في هذه الرسالة أول شعر نفذ في كتاب عن الخلفاء العباسيين . والمتوكل إنما أُعجب بالرسالة لأن إبراهيم أدَّى الغرض الذي كانت تُكَلِّمُ فيه الرسائل الطويلة بأوجز عبارة دون أى تقصير ودون أى إخلال ، بل مع الوفاء به إلى أبعد حد . وكاننا لا نقرأ صيغاً متعاقبة في رسالة ، وإنما نقرأ حكماً وأمثالا ، لدنة المعاني ودقة أدائها وصياغتها ، وقد أجرى فيها ضرورياً من التقطيعات الصوتية ، وإن لم تأخذ الصورة النهائية على نحو ما يتضح في أوائلها ، ولم يابث أن أضاف فيها سجعاً طريفةً ، كما أضاف صورة بديعة إذ عبَّر عن الحرب بحسم الداء . والكتاب بحق

يصور مراناً طويلاً على استخدام الكلام ووضع في مواضعه ، بل قل إنه يصور  
خبرة طويلة امتدت عشرات السنين . ومن طراز هذه الرسالة رسالة أكثر منها  
قِصراً كتب بها في شفاة إلى أحد أصدقائه يزكى رجلاً يستحق العناية به<sup>(١)</sup> :

« فلانٌ ممن يزكو (ينمو) شكره ، ويحسن ذكره ، ويعنيني أمره ، والصنعة  
عنده واقعةٌ موقعها ، وسالكةٌ طريقها :

وأفضلُ ما يأتيه ذو الدين والحجى إصابةٌ شكرٍ لم يضع معه أجرٌ»

والرسالة موجزة ولكنها تؤدّي الغرض منها أداء واضحاً ، وقد استخدم فيها  
لإبراهيم بن العباس السجع ، وبلغ من شدة تدقيقه في المعنى أن أخرج البيت الذي  
ضمّنته الرسالة مخرج الأمثال . وكان كتّاب الرسائل يكتبون في عيدي النظر  
والأضحى رسائل إلى الرعية يبشرونهم فيها بسلامة الخلفاء ، وقد يوجهونها إلى حكام  
الولايات ليحمدوا الله على سلامة الخليفة ويدكروهم واجههم ، من ذلك قوله  
في رسالة<sup>(٢)</sup> :

« أما بعد فإن لكل فرع أصلاً ، عنه مـورِدُه ومُسْتَنْبَطُه ، وإليه مـرْجِعُه  
ومـوْئِلُه ، ومتى رُجِعَ من أصول الأمور إلى تأصيلها (تأصلها) وتمكّنها ، رُجِعَ  
من فروعها إلى استتبابها واستقامتها . وأفضل ما تدرسه أمور دين الله وخلافته ،  
وحقوقُ الله وعباده . فكان الأصلُ وزكاؤه (نماؤه) ما جمع بإذن الله سكون  
الدِّسَاءِ (العمامة) وصلاح البَيْضَةِ (الولاية) وأمن السَّرْبِ (الجماعة) وتظاهر  
النعم فيما قَرُبَ وبعُدَ ، ودنا ونأى ... فافعلْ ذاك معاناً على أمرك » .

والترادف والازدواج واضحان في السطور الأولى من الرسالة ، فورده يليها  
مستنبطه بنفس المعنى ، وبالمثل مرجعه تليها مؤنله ، وتأئلها يليها تمكّنها ، واستتبابها يليها  
استقامتها . وفي ذلك حرص واضح على إرضاء الأذن ، وفي كلامه عن الأصول  
والفروع ما قد يشير إلى أنه كان مثقفاً ثقافاً فقهية ، وقد جمع الأصول الدالة على  
حسن الحكم وتدييره في أربعة : سكون الناس دون إحداث أي فتن أو ثغرات مما  
يدل على رضاهم عن حاكمهم ، وصلاح الولاية في شؤونها السياسية والاقتصادية

(١) الأغاني ١٠ / ٥٣ ومعجم الأدباء ١ / ١٧٨ . (٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٨٩ .

والإدارية ، وأمن الناس على نفوسهم ، وظهور النعم عليهم وأنهم لا يُعانون البؤس والاضنك في الحياة . ويكتب باسم المتوكل وأبنائه تعزيات مختلفة ، من ذلك تعزية باسمه إلى طاهر بن عبدالله واليه على خراسان ، وفيها يقول (١) :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ أَرْضَى اللهُ فِي نِعْمَتِهِ بِشُكْرِهِ وَفِي مَصَائِبِهِ بِالتَّسْلِيمِ لَهُ ، مَنْ فَتَهُمَ مَا فِي شُكْرِ النِّعْمِ مِنْ اسْتِدْعَاءِ تَمَامِهَا ، وَمَا فِي التَّنْذَلِ لِلْمُقَادِيرِ مِنْ اسْتِحْقَاقِ رِضْوَانِهِ ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ مَحَلَّكَ مِنَ الْحَالَتَيْنِ جَمِيعًا مَحَلَّ الْمُتَقَدِّمِ بِنِسْبَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ . وَاللَّهُ يُسْمَعُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيكَ بِصَالِحِ قَسْمِهِ فِيمَنْ مَضَى ، وَالْجَارِيَّ عَلَى مَنْ بَقِيَ وَيَبْقَى ، حَتَّى يُؤَدِّيَ الْفَنَاءُ الَّذِي لَا بَقَاءَ مَعَهُ إِلَى الْبَقَاءِ الَّذِي لَا فَنَاءَ بَعْدَهُ . وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَعْظُكَ بِاللَّهِ ، وَهُوَ أَحَقُّ مَنْ وَعَظَ بِهِ ، وَيُرْشِدُكَ مِنْ إِثَارِ اللهِ لَمَّا نَدَبَكَ لَهُ مِنْهُ . . . فَتَدَّمْ حَقَّ اللهُ عَلَيْكَ بِطَاعَتِكَ لَهُ فِيمَا أَمَرَكَ بِهِ ، وَاتَّقِ اللهُ فِي مَوَاقِعِ أَقْدَارِهِ بِكَ ، تَقْتَصِّصَ بِذَلِكَ مِنْ ثَوَابِ اللهِ أَفْضَلَ عِيُوضِ الصَّالِحِينَ » .

والرسالة تحمل طائفة من دقائق المعاني ، فواجب الإنسان إزاء ربه شكره على نعمه واستسلامه لما يُنزل به قضاؤه فإنه بذلك يستحق رضوانه . والله يتمتع أمير المؤمنين به حتى يطوف به طائف الفناء الذي لا بقاء معه ، والذي ينتقل به إلى البقاء الذي لا فناء بعده . ويقول له : قدَّم حق الله عليك بالطاعة له والرضا بقدره ، وبذلك تستحق ثوابه ، هو خير عوض للراضين المقرِّبين . وفي كتب الأدب قطع مختارة لإبراهيم ابن العباس تزخر بالسجع ، ويبدو أنه كان يستخدمه أحياناً في جواب من رسائله مُسْتَهْبِئاً فِيهِ ، عَلَى نَجْوَى مَا نَرَى فِي الْقِطْعَةِ التَّالِيَةِ الَّتِي احْتَفِظَ بِهَا يَاقُوتُ فِي مَعْجَمِ الْأَدْبَاءِ إِذْ يَقُولُ :

« وَوَجَدَ أَعْدَاءُ اللهِ زُخْرُفَ بَاطِلِهِمْ ، وَتَمُويَهَ كَذِبِهِمْ سَرَابًا بِتَقْيِيغَتِهِ (يحسنه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) وَكُومِيضَ بَرَقٍ عَرَّضَ فَاسْرِعَ ، وَلَعٍ فَاطْمَعِ ، حَتَّى إِذَا انْحَسَرَتْ (انكشفت) مَغَارِبُهُ ، وَتَشَعَّبَتْ مَوَالِيَهُ مَذَاهِبُهُ ، وَأَيُّقِنَ رَاجِيَهُ وَطَالِبَهُ ، أَنْ لَا مَكْلَادَ وَلَا وَزَرَ ، وَلَا مَوْرِدَ وَلَا صَدَرَ (صدور) وَلَا مِنَ الْحَرْبِ مَفْرًا ، هُنَالِكَ ظَهَرَتْ عَوَاقِبُ الْحَقِّ مَنْجِيَةً ، وَخَوَاتِمُ الْبَاطِلِ مُرْدِيَةً ،

(١) جمهرة رسائل العرب ص ١٨٢ .

(٢) معجم الأدباء / ١ / ١٩٠ .

سنة الله فيما أزاله وأداله (هزمه) (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) ولا عن قضائه تحويلاً .

والقطعة سجع خالص ، وتحمل اقتباسات من آى القرآن ، وكلماتها منتخبة انتخبها ذوق مرهف ، وتجري فيها الخصائص التى ذكرنا لإبراهيم بن العباس ، ففيها الازدواج والتكرار فى مثل : « زخرف باطلهم وتمويه كذبهم » ، ومثل « أزاله وأداله » ، وفى الكلمة الأخيرة جناس ناقص . وتلقانا بعض طباقات مثل : « ولا مورد ولا صدر » ومثل « عواقب الحق وخواتم الباطل » ونعثر على بعض صور مثل زخرف الباطل وتمويه الكذب ومثل تشبيه زخرف الباطل بالسراب . وكأنه كان فى نثره مثل شعره وما وصفه به أبو الفرج ، كما مر بنا ، يكتب ثم يختار ، وما يزال يُصْلِح وَيُسْقِط حتى تخرج الرسالة نخبة من الصياغات الأدبية الطريفة . وله توقيعات بديعة تدور فى الكتب الأدبية ، فمن ذلك أن بعض الكتاب كتب إليه يذم شخصاً ويمدح آخر ، فوقع فى الرسالة<sup>(١)</sup> :

« إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْسِنعه ، وللمسىء من النكال ما يَقْسِمه ؛ بذل المحسن الواجب على رغبة ، وانقاد المسىء للحق رهبة » .

والسجع واضح فى التوقيع ، ولكن المهم طرافة التقسيم . ويقول المسعودى : « وإبراهيم بن العباس مكاتبات قد دونت ، وفصول حسان من كلامه قد جمعت » . ويروى عنه أنه كان يقول : « مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلاً ثم وقعوا منه ، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم فى الارتقاء »<sup>(٢)</sup> . ويذكر ياقوت له ديوان شعر وديوان رسائل ، وفى الحق أنه كان كاتباً بليغاً بلاغة رائعة .

## الجاحظ (١)

اشتهر بلقبه الدال على نتوء حنك قسّيته وجحوظهما ، واسمه أبو عثمان عمرو بن بحر . وقيل إنه من كنانة ، وقيل بل هو كنانى ولاء وإن جدّه فزارة كان عبداً أسود جَمّاً لا لعمرو بن قلع الكنانى . واختلف في السنة التي وُلد فيها ، على حين اتفق الرواة على أنه توفي سنة ٢٥٥ للهجرة ، والمظنون أنه وُلد في العقد السادس من القرن الثاني للهجرة ، وكأنه عاش ما يقرب من مائة سنة ، ويروى عنه أنه قال في أواخر حياته يشكو من الفالج ( الشلل ) والنقرس ( الروماتزم ) : « أنا في هذه العلل المتناقضة التي يتخوف من بعضها التلف ، وأعظمها ست وتسعون سنة » (٢) . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته إلا أنه نشأ بالبصرة مسقط رأسه ، وفي مطالع الجزء الثاني من كتابه « الحيوان » ما يشير إلى أنه كان يختلف إلى بعض الكتاتيب مع لِداته من الصبّية ، وكانوا يتعلمون فيها القراءة وشيئاً من النحو والفقه والحساب ، ويحفظون بعض القرآن وبعض الأشعار ، حتى إذا شَبَّ عن الطوق مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها ، وكانوا يحاضرون في كل فن ، وكانت أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس . وقد أخذ يلتهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شريعة ومن نحو وعلوم لغة ومن مناقشات وحوارات بين المتكلمين من كل الفرق . وكان يختلف إلى المربد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة وبعض ما يشهدونه من الأشعار ، وكان المربد سوقاً تجارية وأدبية كبيرة منذ

الاعتدال ٢٤٧/٣ وضحى الإسلام لأحمد أمين  
١ / ٣٨٦ وكتابتنا الفن ومذاهبه في النثر العربي  
ص ٤٥ وإبناظله الحاجري (طبع دار المعارف)  
وإبناظله شارل بلات (طبع دار اليقظة العربية  
للتأليف والترجمة والنشر) .

(٢) تاريخ بغداد ١٢ / ٢١٩ ومعجم الأدباء  
١٦ / ١١٣ .

(١) انظر في الجاحظ وحياته وأخباره  
وثقافته الفهرست ص ١٧٥ وتاريخ بغداد  
١٢ / ٢١٢ ومرجع الذهب ٤ / ١٠٩ ومعجم  
الأدباء ١٦ / ٧٤ وزهرة الألباء لابن  
الأنباري وابن خلكان في عمرو ومرآة الجنان  
للياقبي ٢ / ١٥٦ وأمالي المرتضى ١ / ١٩٤  
ولسان الميزان ٤ / ٣٥٥ والأنساب الورقة ١١٨ وميزان

العصر الأموي . وفي أخباره أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان<sup>(١)</sup> أحد نهيرات البصرة ، وقد يشير ذلك إلى أن نشأته كانت بسيطة ، وأنه كان في حاجة إلى أن يكتسب معاشه . ويرَوَى أن أمه ضاقت بانتهامه في الدرس والقراءة ، فطلب منها يوماً طعاماً ، فجاءته بطبق مليء بكراريس أو دَعَمَها البيت ، وقالت له : ليس عندي من طعام سوى هذه الكراريس ، تريد أن تنبهه إلى التكسب . فذهب إلى الجامع مغتمساً ، ولقيه مُوَيْس بن عمران أحد رفاقه الأثرياء في الدرس ، فسأله ما شأنك ؟ فحدثه بحديث أمه ، فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين ديناراً ، فأخذها فرحاً ، ودخل السوق ، واشترى الدقيق وحمله الحمائل إلى داره ، وسألته أمه من أين لك هذا ؟ فقال لها من الكراريس التي قَدَمْتِهَا إلى<sup>(٢)</sup> . وكان مُوَيْس بن عمران كان رمزاً مبكراً لما سيصيبه من أموال وعطايا من الخلفاء والبرراء .

ولم تقف ساحات تثقفه عند المسجد والمربد وما كان يأخذه عن جليته العلماء أمثال الأصمعي وأبي زيد والأخفش وأبي عبيدة أصحاب اللغة والأخبار ولا عند أبي الهذيل العلاف وبشر بن المعتز وثمامة بن أشرس والنظام من المعتزلة ، ولا عند كبار الفقهاء والمحدثين في عصره ، بل امتدت إلى كل فروع الثقافة ، عن طريق المكتبات ، وكان الكتاب بمجرد أن يؤلّف أو يترجم في البصرة أو في بغداد تتكاثر نسخه في أيدي الورّاقين أصحاب المكتبات ودكاكين الكتب . ومعروف أن البصرة كانت دار الترجمة قبل نشوء بغداد وفيها ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة وكتب الآداب الفارسية ومنطق أرسططاليس ، وبهذه الثقافة العلمية التي حققتها لنفسها مبكرة استطاعت أن تضع علم النحو وقوانينه النهائية ، كما استطاعت أن تظفر بالمعتزلة أصحاب الفكر الحر في الدراسات الدينية ، وصلة المعتزلة بالفلسفة مقررة معروفة ، ولذلك يكون من الخطأ أن يزعم زاعم أن الجاحظ لم يقرأ الترجمات اليونانية إلا في بغداد<sup>(٣)</sup> بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، حين دخلها وأقام فيها لعهد المأمون ، فقد كانت تحت بصره في دكاكين

(٣) الجاحظ لشارل بلات ص ١١٥ وفي

مواضع متفرقة .

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٤ .

(٢) المعتزلة لابن المرتضى ص ٣٨٠ .

الوراقين ، ولم يكن يكتفى بقراءة كتاب أو كتب في اليوم الواحد ، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر<sup>(١)</sup> . ويقول أبو هيفان : « لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان »<sup>(٢)</sup> . وكان أشبه بآلة مصورة فليس هناك شيء يقرؤه إلا ويرسم في ذهنه ، ويظل في ذاكرته آماداً متطاولة . ومن أكبر الدلالة على شغفه بالقراءة والكتب المقدمة الطويلة التي وضعها بين يدي كتابه الحيوان ، وهي نحو مائة صفحة في تمجيد الكتب ، وقد ضمنها فهرست كتبه الكثيرة التي صنّفها قبل الحيوان .

وكان من أهم ما شغف به الاعتزال ، وقد مضى يلزم أساتذته في عصره ، ويستوعب كل ما كان عندهم ، بادئاً بأبي الهذيل العلاف ، وكلما اشتهر معتزلي لزم حلقتة ، وكان من أهم من لزومهم النظام<sup>(٣)</sup> ، وكان لا يبارى في المناظرة وإفحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة ، فتلقن ذلك عنه ، وسراه يطبقه في كل جانب من جوانب كتاباته الكثيرة ، وفيه يقول : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، وأقول لولا أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإني أقول ، إنه قد أنهج لهم سببلاً وفتح لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة »<sup>(٤)</sup> وكان النظام يمزج بقوة بين الاعتزال والفلسفة ، وكأنه هو الذي دفع الجاحظ دفعاً للترود من جدالهما بكل ما استطاع . ويبدو أنه هو الذي غرس في نفسه فكرة الثقافة الموسوعية فإن ما رواه عنه في كتابه « الحيوان » يدل على أنه كان مستوعباً لكل الثقافات في عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية . وهدهاء طول تفكيره في آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء ارتت له فرقة سميت بالجاحظية نسبة إليه ، ويعرض الحياط المعتزلي في كتابه الانتصار طائفة من هذه الآراء ، ويشيد بكتابه فضيلة المعتزلة طويلاً<sup>(٥)</sup> . ولا نعرف متى بدأ الجاحظ كتاباته

(٥) الانتصار ص ١٠٣ وانظر في آراء

الجاحظ فهرس هذا الكتاب والفرق بين الفرق

للبيهادي ص ١٧٥ .

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٤) الحيوان ٤ / ٢٠٦ .

ويبدو أنه كان يَلْتَقَى كثيراً من الإهمال في أول أمره ، حتى كان يُضْطَر حين يُؤلف كتاباً أو رسالة أن ينسب عمله إلى بعض الكتاب القدماء النابيهين أمثال ابن المقفع أو الخليل أو العتّابي أو سلّم صاحب بيت الحكمة ، حينئذ كان الكتاب يروج ، ويأتى الناس لروايته<sup>(١)</sup> عنه . وكان زملاؤه وأساتذته من المعتزلة يعرفون فضله ، وفي مقدمتهم بشر بن المعتمر وثُمّامة بن أشرس ، حتى إذا شغل المأمون بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة بعد رجوعه من مَرّو إلى بغداد أشار عليه ثُمّامة بأن يطلب إلى الجاحظ الكتابة في هذا الموضوع ، وكتب الجاحظ وأعجب المأمون إعجاباً لا حَدَّ له بما كتب<sup>(٢)</sup> ، وكان ذلك فاتحة عهد جديد للجاحظ ، لا لأنه تحول من البصرة إلى بغداد ، ولكن لأنه أصبح كاتباً رسمياً للدولة ، ونظن ظناً أنه أصبح له راتب منذ هذا التاريخ ، ويقال إن المأمون حاول أن يقلده ديوان الرسائل ، ولكنه لم يستطع المقام به سوى ثلاثة أيام<sup>(٣)</sup> ، عاد بعدها إلى صناعته من التأليف والكتابة الأدبية ، مكفياً - فيما يبدو - براتبه . وربما كان قبّحه الذي عُرِف به هو السبب الحقيقي في أنه وجد وظيفة ديوان الرسائل لاتلائمه . وفي بغداد طاب له المقام وأخذ يتعرف على بيئاتها الأدبية والعلمية في النوادي والمساجد وحلقات الدرس والمناظرة . وتتحول الخلافة إلى سامراء في عهد المعتصم ، ويتحوّل معها الجاحظ ، ويتخذ سامراء دار مُقام له وتتوثق الصلة بينه وبين وزير المعتصم ابن الزيات الكاتب الشاعر المشهور ، وفيها يتعرّف على كثير من الأدباء ، وخاصة أصحاب الفكاهات والنوادر من أمثال أبي العيّناء والجَمّاز وغيرهما من المضحكين ندماء الخلفاء ، وجعلته صلته بابن الزيات يقف في صفه ضد خصمه أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة ، ولا يلبث المعتصم أن يتوفى ويتبعه ابنه الواثق وتصير الخلافة إلى المتوكل ، وكان يَصْطَخِنُ على ابن الزيات أموراً كثيرة مما جعله يقبض عليه ويعذّبه في تَسْئور محمى بالنار حتى يموت . ويقرب المتوكل في هذه الأثناء ابن أبي دؤاد ، ويُرسَل في طلب الجاحظ ، ويأتونه به مقيّداً ، ويأخذ في تعنيفه ، ويقرل له الجاحظ :

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٢٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٨ .

(١) مجموعة رسائل الجاحظ (طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٨ .

« خَفَضَ عَلَيْكَ - أَيَدَكَ اللَّهُ - فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَكُونَ لَكَ الْأَمْرُ عَلَى خَيْرٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي عَلَيْكَ ، وَلَأَنْ أَسِيءَ وَتَحْسَنَ أَحْسَنَ مِنْ أَنْ أَحْسَنَ فَتَسِيءَ ، وَأَنْ تَعْفُو عَنِّي فِي حَالِ قَدْرَتِكَ أَجْدَلُ مِنْ الْإِنْتِقَامِ مِنْي » . وعفا عنه ابن أبي دؤاد<sup>(١)</sup> . ولا نلبث أن نرى الفتح بن خاقان وزير المتوكل شغوفاً به وبمجالسته ونراه يكتب إليه بأمر من المتوكل أن يصنف رسالة في الرد على النصارى<sup>(٢)</sup> ، ويغلب أن يكون هذا التكليف في سنة ٢٣٥ ، وهي السنة التي أخذ فيها المتوكل النصارى وأهل الذمة بلبس الطيالس كما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع . وكأن مهمته كاتباً رسمياً للدولة ظلت قائمة منذ مطلع القرن الثالث الهجري حتى هذا العام . ولا بد أن الدولة كانت تكفيه عيشه كما كانت تكفي كثيرين من العلماء والشعراء ، وكان حين يُهتدى الوزراء والسُّودا وكبار الكتّاب بعض كتبه يُهدونه بعض أموالهم ، فقد أهداه ابن الزيات خمسة آلاف دينار على كتابه الحيوان حين قدّمه إليه ، وبالمثل صنع ابن أبي دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين وإبراهيم بن العباس الصولي حين أهدى إليه كتاب الزرع والنخيل . وكان قليل من المال يسدُّ حاجته ، إذ لم يتزوج ولم يرزق الأولاد ، إنما هو وجاريتان ، وهذا كل ما هناك . ويظهر أن مرض الفالج ( الشلل ) ألمّ به مبكراً ولكنه لم يُقعده عن الحركة ولا عن الكتابة ، فقد ألّف كتاب الحيوان الذي قدّمه لابن الزيات المتوفى سنة ٢٢٣ للهجرة وهو مفلوج<sup>(٣)</sup> ، وبالمثل البيان والتبيين والزرع والنخيل وكثير من رسائله الأدبية . وأصابه النقرس وطال به العُمر ، وإذا صح أنه صحب الفتح بن خاقان في زيارته لدمشق سنة ٢٤٣ فإنه يكون قد ظل محتفظاً بقواه على الأقل حتى هذا التاريخ . وحين اشتد به المرض عاد إلى البصرة وأمضى بها بقية حياته . ويقول المبرد : « دخلت على الجاحظ في آخر أيامه . فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حُرِّبَ بالمناشير ما شَعَرَ به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه » . ووجه إليه المتوكل في سنة ٢٤٧ شخصاً يحمله إليه ، فقال : « وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذى شِقِّ مائل ، ولُعباب سائل ، وعَقَل حائل<sup>(٤)</sup> ؟ ! » .

(٣) ذيل زهر الآداب للحصري ص ١٦٥ .

(٤) انظر في الخبرين السابقين معجم

الآداب ١١٣ / ١٦ .

(١) معجم الآداب ٧٩ / ١٦ .

(٢) معجم الآداب ٩٩ / ١٦ وما بعدها

ونراه في كتابه إليه يشير إلى راتب شهري معلوم كان يجري على الجاحظ .

ويُعدُّ الجاحظ أكبر كاتب ظهر في العصر العباسي ، وهو في الحق الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الحصبة التي نهض بها المعززة ، سواء من حيث وضوح المنطق أو من حيث قوة الاستدلال أو من حيث القدرة على التوايد للدعوى ، وكأنه يستمد من مخازن عقلية لا تنفذ ، ولاحظ ذلك ابن المعتز وغيره من القدماء عنده ، فقالوا إنه يستخدم المذهب الكلامي في كتاباته<sup>(١)</sup> ، ويريدون به قوة الحججة المنطقية والقدرة على التسبيب والتعليل ، وكأنما يأخذ من نهر لا ينضب ، نهر لايزال يجلب منه الحججة ونقيضها ، تُسَعِّفه في ذلك قدرة على الجدل والحوار لا تتوقف عند حد ، ومن أجل ذلك قال ابن العميد عنه عبارته المأثورة : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » بما يستنبطه من خفيات المعاني وما يثيره من دقائق الفكر في الروح والجسم والحواس والخير والشر والجره والعرض ، بل أيضاً من خفايا المجتمع الذي عاشه وظواهره وما فيه من أخلاق وغير أخلاق مما يتصل بطبقاته الشعبية من لصوص ومُكدِّين ورقيق وغير رقيق وقيان وغير قيان وما يتصل بطبقاته الوسطى من تجار وموظفين في الدواوين وعلماء وشعراء وما يتصل بطبقاته العليا الحاكمة وغير الحاكمة من خلفاء ووزراء ورؤساء دواوين وقضاة وقواد وما يتصل بأهمل الذمة من المحوس والنصارى واليهود ، وما يتصل بالحيوان وبالنبات وبالعرب والعجم وفضائل الشعوب ، وكأنك تدور في كتاباته بمتحف لا تنزل تفجؤك فيه الطرف والصور . وتارة يعرض عليك مسألة كلامية معقدة ، وتارة يعرض حادثة من حوادث الحياة اليومية في البصرة أو في بغداد أو في سامراء ، ومرة يطوف بك في ردهات الفكر العميق أو في بعض آي القرآن ، ومرة يطوف بك في شارعات المدن السابقة وأزقتها وحوانيتها الصغيرة والكبيرة ودور النخاسة ومن فيها من الحوارى ، وهو في هذا كله لا تفوته قسمة وجه ولا إشارة يد ولا دخيلة نفس .

وبجانب هذا الفكر المنطلق في البحث وفي الوصف وفي الرواية الذى ينقل لك الواقع بكل شياته وسماته ، وكأنك بإزاء أشربة سينائية تعرض عليك كل ما في مدن العراق الكبيرة من صور الحياة في أشدها ترفاً ونعيماً وأشدها بؤساً وضنكاً ، حتى لكأنما كتبه دائرة معارف لكل ما كان هناك من أزياء وعادات ومستوى معيشة وأخلاق . ويبلغ من قلته لواقع مجتمعه أنه كان لا يتحرج من ذكر أى شيء حتى

(١) كتاب البديع لابن المنز (طبعة كراتنة ونسك) ص ٥٣ .

العورات أحياناً ، ويعلن ذلك في صراحة صريحة دون أى مواربة إذ يقول :  
«وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر (العورات) ارتدع وأظهر التقزز واستعمل باب  
التورع ، وأكثر من تجلده كذلك وإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل  
والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا  
عن لؤم مستفحل ونذالة متمكنة .»<sup>(١)</sup>

وبجانب ذلك لا يزال الجاحظ يحاول إطفاءك بالنوادير المضحكة ، وكان القدماء  
يلاحظون ذلك بوضوح ، حتى ليقول المسعودي : « كتب الجاحظ مع انحرافه  
المشهور ( يريد خصومته للشيعة ، وكان المسعودي متشيعاً ) تجلو صداً الأذهان  
وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورفضها أحسن رفض ،  
وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع خرج  
من جيد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة»<sup>(٢)</sup> . ويصور ذلك الجاحظ  
نفسه فيقول : « وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يُحتمل أصحابها  
على الجدل الصرّف وعلى العقل المحض وعلى الحق المرّ وعلى المعاني الصعبة التي تستكدّ  
النفوس وتستفرغ الجهود ، وللصبر غاية والاحتمال نهاية ، ولا بأس أن يكون الكتاب  
موشحاً ببعض الهزل»<sup>(٣)</sup> . وخصّ الهزل والنوادير بكتابه المشهور « البخلاء » وهو  
مجموعة كبيرة من الأقاصيص الفكهة عن الأشحاء البخلاء في عصره . ويسمى  
رسالة له في هجاء أحد الكتاب المسمى بأحمد بن عبد الوهاب ، وهي رسالة الترييع  
والتدوير ، على الضحك به والتندر عليه إذ كان قصيراً مليئاً ، فجعل يصفه في  
رسالته وصفاً مضحكاً ، ثم حوّله إلى دراسة واسعة في الجمال ، وهل يكون في القصر  
أو يكون في الطول أو يكون في النحافة أو يكون في الامتلاء أو يكون في الترييع  
والتدوير ، وهي تمتد إلى عشرات الصفحات وتمتلئ بالدعابة تارة وبالسخرية تارة  
أخرى ، وفيها يقول مدافعاً عن المزاح : « ولو استعمل الناس الرصانة في كل حال  
والجد في كل مقال . . . لكان السفه الصرّاح خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ  
عليهم . . . ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل ، فالضحك في موضعه كالالبكاء  
في موضعه»<sup>(٤)</sup> .

(١) الحيوان ٣ / ٤٥ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ١٠٩ .

(٣) رسالة في النساء مجموعة رسائل الجاحظ .

نشر السندوبي ص ٢٦٦ .

(٤) رسالة الترييع والتدوير ( طبعة شارل

بيلات بدمشق ) ص ٥٣ .

العصر العباسي الثاني

وجترت رغبةُ الجاحظ في أن يتخلَّل كتاباته بالنوادر وما يُطَرْف القارئ رغبةً مماثلة في أن يورد في تضاعيف كتاباته بعض آي القرآن وبعض الآثار والأخبار وبعض الأشعار والحكم ، مما أشاع في رسائله وكتبه كثرة الاستطراد ، وكان يقصد إليه قصداً ويتخذُه مذهباً في كتابته ، حتى لا يملَّ القارئ ، وحتى يظل له نشاطه وإقباله على ما يكتبه ، وهو يعلن ذلك مراراً في كتبه ، كقوله في كتاب الحيوان : « قد عزمْتُ - والله الموفِّقُ - أني أُرشِّح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فإنني رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك علينا ، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أو رثت الغفلة »<sup>(١)</sup> . ويقول في موضع آخر : « ومتى خرج ( القارئ ) من آي القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سيداد ... حتى يُفضى إلى مَرَحٍ ونكاهة ، وإلى سُخْفٍ وخرانة »<sup>(٢)</sup> .

ودائماً يُعنى الجاحظ بصياغته ، بادئاً بموادها من الألفاظ ، فهي تارة ألفاظ جزلة رصينة ، وتارة ألفاظ عذبة رشيقة ، ولكل لفظه موضعها من الكلام ومن المعنى الذي تؤدِّيه ، وهو يصيح في البيان والتبيين وغيره من كتاباته : الدلاؤم - الدلاؤم - ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ، أو بعبارة أخرى لسااميه ، يقول : « وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدويّاً أعرابياً ، فإن الوَحْشِيَّ من الكلام يفهمه الوحشيُّ من الناس ، كما يفهم السوقُ رطانة السوقِ »<sup>(٣)</sup> . ودائماً يُبدي ويُعيد في أن الأسلوب ينبغي أن يكون وسطاً بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وأن تشف الأناظ عن المعاني حتى تَلَسَدَ الأسماع والقلوب ، يقول : « أحسن الكلام ما كان قليله يُغْنِيكَ عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه . . . وإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً . . . صنَّعَ في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة »<sup>(٤)</sup> . وأكثر من

(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤٤ .

(٤) البيان والتبيين ١ / ٨٣ .

(١) الحيوان (طبعة الحلبي) ٣ / ٧ .

(٢) الحيوان ١ / ٩٣ .

الحديث في البيان والتبيين عن حسن الصياغة وجمال العبارات ، وهو بحق الذي أعد في قوة لشيوع أسلوب جديد في الكتابة، هو أسلوب الازدواج، وهو أسلوب يقوم على التوازن الدقيق بين العبارات بحيث تلاحق في صفوف متقابلة ، دون أن تتحد نهاياتها على نحو ما هو معروف في السجع . هي تتقابل وتتبادل صوتياً، ولكن دون أن تحقق التوازن الصرقي المألوف في السجع ، ومع ذلك تحقق ضرباً من الإيقاع ، فالكلمات تتوازن وتتبادل ، ودأن كل كلمة في عبارة تقابلها كلمة في العبارة التالية على شاكلة قوله : « لا أعلم قريناً أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافاة ولا أحضر معونة ، ولا أخف مئونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ، ولا أطيب ثمرة » ، ولا أقرب مُجْتَنَى ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أوجد في كل لبأن من كتاب ، ولا أعلم زيتاجاً في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، وريخص ثمنه وإمكان وجوده ، يجمع من التداير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب <sup>(١)</sup> . وبمثل هذا الأسلوب المتدقق الذي ينف به جمال الصوت من كل جانب دون أن يخرج به الجاحظ إلى تكلف السجع كان يؤلف ويصنّف الكتب الطوال والرسائل المتنوعة الموضوعات ، دون أن تتأبى عليه كلمة أو صيغة ، فقد أصبحت اللغة مرنة في لسانه وعلى قلبه إلى أقصى حد ، لغة شفافة يشيع فيها الوضوح وهذا الأسلوب المصنّى الذي يروق الآذان والأسماع بأصواته كما يروق القلوب والعقول بمعانيه وأفكاره .

ودائماً تلقانا هذه الخصائص العامة لكتابات الجاحظ، إذ يُعسّى دائماً بأسلوبه وسريان الازدواج فيه وبألفاظه وصياغاته وملاعنها لمعانيها وموضوعاتها وقرائنها ، كما يُعسّى بسريان روح الدُّعابة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية إلى نادرة إلى بيان سيمّة لشخص من معاصريه إلى قرآن أو حديث إلى فكرة عن علم من علوم عصره كالفلك إلى عقيدة للمجوس إلى ما لا يُحصى من المعارف

وأحوال مجتمعه . وبذلك ينفرد عن أدباء عصره إذ جعل أدبه أدباً واقعياً يصور مجتمعه وكل ما فيه من أخلاق وعادات تتصل بالرجال أو بالنساء والقيان وكيدهن . ودائماً تلقاك طوابعه العقلية من القدرة على الجدل واستنباط البراهين والأداة ودقائق المعاني والأفكار خائضاً بك في أعماق المباحث الكلامية من تنزيه الله عن الشبه بالمخلوقات أو الكلام عن صفاته أو في المعرفة أو في الاستطاعة ، مع ذكر أطراف مما يجرى فيه الناس ويخوضون فيه ، ومع التنقل في كل الموضوعات من الإنسان أو الحيوان أو النبات .

ولسنا بصدد البحث العام في الجاحظ ، إنما نريد أن نقف قليلاً عند عرضه لبعض المناظرات وما كتبه من رسائل إخوانية وأدبية ونثر قصصي ونوادر ، ومرّبنا أنه طبع كثيراً من رسائله بطابع المناظرة والحوار في مدح الشيء وذمه ، ولعل أكبر مناظرة ساقها مناظرة النظام ومعبّد في الكلب والديك أيهما أفضل ، إذ شغلت نحو مجلّد ونصف من كتاب الحيوان ، ويذكر أن الغرض منها بيان حكمة الله وتدييره في الكلب والديك ، يقول : « إنما تنتظر (نجدال) فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صنّعه وعلى عجب تدييره وعلى لطيف حكمته ، وفيما استخزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الإحساس وسخّر لهما من عظام المنافع والمرافق ، ودلّ بهما على أن الذي ألبسهما ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكر فيهما ويعتبر بهما ويسبح الله عز وجل عندهما » . وهو يردّد ذلك في جوانب من المناظرة ليبين الغاية منها والغرض . وقد بدأ فيها بالحديث عن الكلب وما قاله معبّد في ذمه وما قاله النظام في مدّحه ، ولخصّ ذلك يقول (١) :

« باب ما ذكر صاحب الديك من ذمّ الكلاب وتعداد أصنافها ومعانيها ومثالبها من لؤمها وجبّسها ، وضعفها وشرّها ، وغدّرها وبذّاتها ، وجهلها وتسرعها ، ونسنتها وقنّدها ، وما جاء في الآثار من النّهى عن اتخاذها وإسكانها ومن الأمر بقتلها وطردّها ، ومن كثرة جنائياتها وقلة ودّها ، ومن ضرب المثل بلؤمها ونمالتها ، وقبحها وقبح ملازمتها ، ومن سماجة نباحها وكثرة أذاها ، وتقذّر المسلمين

من دنوِّها وأنها تأكل لحوم الناس ، وأنها كالخِذْلَتِ المركب ، والحيوان الملقق :  
 كالبعول في الدوابِّ وكالراعيِّ في الحمام ، وأنها لا سبع ولا بهيمة ، ولا إنسية  
 ولا جنسية ، وأنها من الجينِّ دون الجينِّ ، وأنها مطايا الجينِّ ونوع من المسخِّ  
 وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى ، وأنها يعتربها الككسبُّ من أكل لحوم الناس .  
 فإذا حكينا ذلك حكينا قول مَنْ عَدَّدَ محاسنها ، وصنَّفَ مناقبها ، وأخذنا في  
 ذكر أسمائها وأسابيها وأعراقها ، وتفدية الرجال إيَّابها ، واستهترهم بها ، وذكر  
 كسبها وحراستها ، ووفائها وإلفها وجميع منافعها ، والمرافق التي فيها ، وما أُودِعَتْ  
 من المعرفة الصحيحة ، والفيطن العجيبة ، والحسِّ اللطيف ، والأدب الحمود .  
 وذلك سوى صديق الاسترواح وجودة الشم ، وذكر حفظها ونفاذها وأهندائها ،  
 وإثباتها لصور أربابها وجيرانها وصبرها ، ومعرفتها بحقوق الكرام ، وإهانتها  
 اللثام ، وذكر صبرها على الجفساء ، واحتمالها للجوع ، وذكر ذمامها وشدة  
 مسعها معاقدة الدمار منها ، وذكر يقظتها وقلة غفلتها ، وبعُد أصواتها ،  
 وكثرة نسلها وسرعة قبولها . . . مع اختلاف طبائع ذكورها . . . وترددها في  
 أصناف السباع ، وسلامتها من أعراق البهائم ، وذكر لقننها وحكايتها ، وجودة  
 ثقافتها ومهنتها وخِدْمَتها ، وجِدِّها ولِعْبها في جميع أمورها ، بالأشعار  
 المشهورة والأحاديث المأثورة ، وبالكتب المنزلة ، والأمثال السائرة ، وعن تجربة  
 الناس لها وفراستهم فيها ، وما عاينوا منها ، وكيف قال أصحاب الفأل فيها  
 وأخبار المتطيرين عنها ، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها ، وعدد جرائنها ، ومدة حملها  
 وعن سِمَاتِها وشيئاتها ، وعن دوائها وأدوائها وسياستها ، وعن اللاتي لا تلتقنُ منها ،  
 وعن أعراقها والخارجيِّ منها ، وعن أصول موالدها ومخارج بُلْسُدانها .

وعلى هذا النحو يستقصى الجاحظ جميع الوجوه التي تُتَدَمُّ بها الكلاب ،  
 فيذكرها على لسان معبِّد وينقضها على لسان النظام ، ثم يأتي بمحاسنها ومحاولات  
 معبِّد في نقضها ، وفي أثناء ذلك يستعين بالأشعار وبآي القرآن والحديث ومعارف  
 العرب ، كما يستعين بمعارف غيرهم وبنواديرهم ونوادير اليونان . مع الرجوع دائماً إلى  
 التجربة . وهو في تضاعيف ذلك يستطرد إلى كثير من المباحث الكلامية وإلى

كثير أيضاً من عادات العرب . والمناظرة في رأينا مناظرة بين الشعوبية والعرب ، أما الشعوبية فرمزهم الديك الذي يُرعى في قراهم ومدنهم ، وأما العرب فرمزهم الكلب الذي لا يفارقهم في منازلهم ومراعيهم ، وكأن معبداً والنظام المعتزلين اسمان اختارهما الجاحظ ليقم مناظرته ، أما في حقيقة الأمر فليس هناك معبد ولا النظام ، وإنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات سواء اتصلت بالحيوان أو لم تتصل ، وهناك العرب والشعوبية التي تستقدر الكلب وحيوانات الصحراء ، مما جعل الجاحظ يعقد في حيوانه مناظرة أخرى بين البعير والنخيل<sup>(١)</sup> ، فدانماً الشعوبية تتحرش بالعرب وتهجن حياتها وكل ما اتصل بها ، وكأن الجاحظ أقام نفسه رصداً لهم ، ومن الممكن أن يكون من هذا الباب كتابه الزرع والنخيل الذي أهده إلى إبراهيم بن العباس الصولي ، فالزرع رمز الحضارة والشعوبية ، والنخيل رمز العرب والبادية ، وقد هاجم الجاحظ الشعوبية مراراً ، في كتابه البيان والتبيين إذ أفرد لها فصلاً طويلاً وفي كتابات أخرى له متعددة عن العرب والعجم . ونسوق فقرة من ذم صاحب الديك للكلب وبعض صفاته وردّ صاحب الكلب عليه ، وهي تجرى على هذه الصورة<sup>(٢)</sup> :

« قال صاحب الديك : إن أطعمه اللصُّ بالنهار كسيرة خُبْرٍ خَلَاة ، ودار حواه ليلا ، فهو في هذا الوجه مُرْتَشِّشٌ وآكلٌ سُحْبَتٍ ، وهو مع ذلك أسمعُ الخلق صوتاً ، وأحدثُ الخلق يقظة ونوماً ، ينام النهار كله على نفس الجادة (الطريق) وعلى مَدَقِّ الحوافر ، وفي كل سَوْقٍ وملتقى طريق . . . وقد سَهَرَ الليل كله بالصياح والصخب ، والنصب والتعب ، والغيط والغضب ، وبالحمى والذهاب ، فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إليه ، فإن وَطِنَتْهُ دابة فأسوأ الخلق جَزَعاً ، وألأمه لوماً ، وأكثره نُباحاً وعُواءً ، فإن سلم ولم تطأه دابة ولا وَطِنَتْهُ إنسان فليست تم له السلامة ، لأنه في حال متوقع للبلية ، ومتوقع البلية في بليته ، فإن سلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأ حالاً منه ، لأنه أسوأهم جزعاً وأقلهم صبراً ، لأنه الجاني ذلك على نفسه ، وقد كانت الطرق الحالية له معرّضة ، وأصول الحيطان مباحة ، وبعد فإن كلَّ خَلُوقٍ فارق أخلاق الناس فإنه

(٢) الحيوان ١/٢٨٢ وما بعدها .

(١) الحيوان ٧/١٩٣ .

مدموم ، والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سَكَنًا ، وينثرون بالنهار الذى جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحًا . قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول إن سهره بالليل ونومه بالنهار خصلة ملوكية لقلنا . ولو كان خلاف ذلك ألدَّ لكانت الملوك بذلك أولى . وأما الذى أشرتم إليه من النوم فى الطرق الخالية ، وعبثوه به من نومه على شوارع الطرق والسلك العامرة ، وفى الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلمُ بشأته ، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكتَّاب من رَضِّ عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائمًا فى طريق خال ليس بحضرتة رجالٍ يهابون ، ولا مشيخة يرحنون ويزجرون السفهاء ، وأن ذلك لا يعتربه فى مجامع الأسواق لقلَّ خلافه عليك ولما رَقَدَ فى الأسواق . وعلى أن هذا الخلق إنما يعترى كلاب الحُرَّاس ، وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها ، وبَحَدُّ فَن أخطأ وأظلم من يكلف السباع أخلاقَ الناس وعاداتِ البهائم ؟ وقد علمنا أن سباع الأرض عن آخرها إنما تهيج وتَسْرَحُ وتلتمس المعيشة ليلا ، لأنها تبصر بالليل . . . أما تركه الاعتراض على اللصِّ الذى أطعمه أيامًا ، وأحسن إليه مرارًا ، فإنما وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه وتعاهدهم له . فإذا كان عهدُه ببرِّ اللصِّ أحدث من عهدِه ببرِّ أهله لم يكلف الكلب النظر فى العواقب وموازنة الأمور . والذى أضمر اللص من البيئات غيبٌ قد ستر عنه ، وهو لا يدرى أجاء ليأخذ أم جاء ليعطى . . . ولعل أهله أيضًا أن يكون قد استحقوا ذلك منه بالضرب والإجاعة ، وبالسبِّ والإهانة . وأما سماجة الصوت فالبغل أسمعُ صوتًا منه ، وكذلك الطاووس على أنهم يتشاءمون به . وليس الصوت الحسن إلا لأصناف الحمام من التمارى والدَّباسيِّ وأصناف الشنَّانين (ضرب من العصانير) فأما الأسد والذئب وابن آوى والخنزير وجميع الطير والسباع والبهائم ، فكذلك ، وإنما لك أن تدم الكلب فى الشئ الذى لا يعم . . . وربما كان من الناس - بل كثيرًا ما تجده - مَنْ صوته أقيح من صوت الكلب ، فلم تَخْصُصْ الكلب بشئٍ عامَّةُ الخلق فيه أسوأ حالًا من الكلب . وأما عواؤه من وطءِ الدابة وسوء جرزعه من ضرب الصبيان فجزع الفرس من وقع عَدَبَةٍ (طرف) السوط أسوأ من جرزعه . . .

وواضح كيف أن صاحب الديك ثلّب الكلب مثالب مختلفة في وفائه لأصحابه وفي غلظ صوته وفي نومه بالنهار على الطرق وفي الأسواق ، وفي كثرة نباحه وعوائه حين تطؤه دابّة . ويستقضى صاحب الكلب كل تلك المثالب فهو ينام بالنهار مثل الملوك والسلاطين ، وفي الأماكن الجامعة لما يلقي من السفهاء والصبيان ، حتى يزرعهم الناس ، ومع ذلك ليست كل الكلاب ترقد في الأسواق إنما تلك كلاب الحراسة ، وهذا طبيعي لأن الأسواق دورها ومنازلها . أما أنه لا يني لأصحابه حين يلتقي له لصّ بكسرة خبز ، فإن محاسبه على ذلك لإحسانهم إليه ، وإحسان اللص أحدث من إحسانهم ، ثم هو كلب لا يعرف نية اللص وما أضمر من سرقة أهله ، ولا يدري أجراء ليأخذ أوجاء ليعطى ، وربما كان أهله يعاملونه معاملة سيئة . وسماجة صوته ليست مثلية ، فالبغل أسمع صوتاً منه ، وكذلك الطاووس الجميل المنظر ، والصوت الحسن إنما يكون لأصناف الحمام دون جميع الطير والسباع والبهائم . وحتى الناس منهم من تهبط منزلة صوته في القبح درجات عن صوت الكلب ، وذلك لا يعيبهم . أما جزعه من وطء والدوابّ ضرب الصبيان له فربما كان جزع الفرس من ضرب السياط أسوأ من جزعه . وهكذا تسقط جميع المثالب التي وصف بها صاحب الديك الكلب ولا يبقى منها في يده شيء . وهي براءة فائقة في الحوار وفي الاستدلال والتلطف للبرهان والاحتياط له بالعقل الثاقب ، مع التأنى والتمكين للحجج ، وهي توضع في صورة أدبية بديعة ، هي صورة الأسلوب المزدوج الذي تتوازن فيه العبارات والصيغ وتتبادل إيقاعاتها تعادلاً محكمًا . وتمتد المناظرة في الكلب ومحاسنه ومساوئه من صفحة ١٩٠ في الجزء الأول من الحيوان إلى صفحة ٢٣٣ من الجزء الثاني فتشغل بذلك مجلدًا ضخماً ، ثم تبدأ المناظرة في مساوي الديك ومحاسنه وتستمر إلى صفحة ٣٧٥ من هذا الجزء الثاني . وما احتج به صاحب الديك من محاسنه صياحه الدال على معرفته لساعات الليل في الفجر وغير الفجر ، حتى كأنه فوق الإسطرلاب الذي يرصد الفلك ومنازل القمر ، ويردُّ عليه صاحب الكلب هذه المحمّدة ، لأن الحمار يشرك الديك فيها بنهيقه في الأسحار ، يقول<sup>(١)</sup> :

(١) الحيوان ٢ / ٢٥٥ وما بعدها .

« لولا أن وجدنا الحمار المضروب به المثل في الجهل يقوم في الصباح وفي ساعات الليل مقام الديكة لقد كان ذلك قولاً ومذهباً غير مردود ، ولو أن متفقداً تفقد ذلك من الحمار لوجدته منظوماً يتبع بعضه بعضاً على عدد معلوم ، ولو وجد ذلك مقسوماً على ساعات الليل ، ولكان لقائل أن يقول في نهيق الحمار في ذلك الوقت : ليس تجاوباً وإنما ذلك شيء يستوفاً معاً ، لاستواء العلة ، فلم تكن للديك الموصوف بأنه فوق الإسطراب فضيلة ليست للحمار . . . والحمار أجهل الخلق ، فليس ينبغي للديك أن يُقضى له بالمعرفة ، والحمار قد ساواه في يسير علمه . »

وعلى هذا النحو لا يدلى صاحب الديك بمحمدة إلا وينقضها عليه النظام نقضاً ، وبالمثل ينقض سَعْبِدَ محامد الكلب. ويشتهد الحوار بين المتناظرين ، ونُصِبِحْ وكأننا بإزاء بائنين لحصون من الأدلة والبراهين لا تلبث حين تقوم أن تنقض . وكما قلنا ليس البائنان والناقضان سوى الجاحظ نفسه ، فهو الذي أقام تلك المناظرة التي ظاهرها كلب وديك وباطنها عرب وشعوبية ، وكان يتعصب للعروبة في أعماقه ، مما جعله ينفض عن الكلب كل مذامته ومثالبه ويضئى عليه كثيراً من المحامد والمحسن في حماسة بالغة .

وهذا لون من ألوان أدبه . ولون ثان هو رسائله الإخوانية ، وهي تخرج بطرف فكره وبلاغته ، فمن ذلك أن صديقه ابن الزيات تلون له وتنكر فترةً إذ أحسَّ انشغاله عنه ، فكتب إليه الجاحظ يستعطفه بالرسالة التالية (١) :

« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرَفِ الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجَّح في قلبك إثارة الأناة (الحلم) فقد خفتُ — أيديك الله — أن أكون عندك من المنسويين إلى نَزَقِ السفهاء ، وبجانبه سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإنَّ امرأً أمسى وأصبح سالماً  
من الناسٍ إلا ماجنى لسعيدهُ  
وقال الآخر :

ومن دَعَا الناسَ إلى ذمِّه  
ذَمَّوه بالحق وبالباطلِ

فإن كنتُ اجترأتُ عليك — أصلحك الله — فلم أجترئُ إلا لأن دوام تغافلِكَ  
عنى شبيهه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعَسْفُ المتتابع يُؤمّن من المكافأة  
(المجازاة) وِالمَدَلِك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعمان رحمه الله : عمر كان  
خيراً لى منك : أرهبنى فأتقانى ، وأعطانى فأغنانى . فإن كنت لا تهب عقابى  
— أيدك الله — لحرمة ، فهتبه لآياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النعمة ،  
وإلا تفعل ذلك لذلك فعُدْ لحسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدثوة ،  
وإلا فأت ما أنت أهله من العفو ، دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان  
مَن جملك تعفو عن التعمد ، وتتجافى عن عقاب المُصِرِّ ، حتى إذا صرت  
إلى مَن همته بكثر (أولى) وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا  
الإِنعام إلا منك هجمت عليه بالعقوبة . واعلم — أيدك الله — أن شين غضبك  
على كزين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك ، كحياة  
ذكرى مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام .

والرسالة على قصرها تحمل خصائص الجاحظ الأدبية ، فنيها شعر وخبر ،  
وفيهما المهارة العقلية على التدلِيل واستنباط الأفكار ، فابن الزيات هو الذى طال  
تغافله عن الجاحظ ويشبهه التغافل بالإهمال ضرباً من القياس ليصل إلى إغفاله له ،  
ويسوق دليلاً ملزماً ، فهو دائماً يعفو عنه والعفو المتتابع يجعل المعفو عنه آمناً من  
المجازاة وأن يصاب بسوء . ثم مضى يلزمه الرضا عنه ، بمنازل متعددة منه ، إما  
لمنزلة حرمة منه ، وإما لما تتابع عليه من أياديه ، والنعمة تشفع فى النعمة ، برهاناً  
ساطعاً ، وإما لحسن العادة ، وإما لحسن الأحدثوة ، وإما لأنه أهل للعفو عن  
المستحقين للعقوبة من أمثاله . ويتلطّف له قائلًا إنه أول ذنب لى وأيس ذنبى إلا  
النسيان ، وهل عرفت الشكر إلا لك ولا الإِنعام إلا منك . فاذا يملك ابن الزيات  
إزاء هذا البيان الرائع إلا أن يعود إلى الرضا التام ؟ وتتقابل عبارات الرسالة فى  
صفوف ، وكأن كل كلمة فى عبارة سابقة تجذب قرينتها فى العبارة اللاحقة ، دون  
محاولة لسجع أو نغم مماثل فى نهايات الجمل المتلاحقة ، وهكذا الجاحظ دائماً  
يكتفى بجمال التوازن العام فى أسلوبه المزدوج . وانظر إلى التوازن الدقيق فى العبارات  
الأخيرة من الرسالة ، « فشين غضبك » توازن « زين صفحك » ، و« موت ذكرى

مع انقطاع سببي» توازن «حياة ذكرى مع اتصال سببي». وتكامل مثل هذا التوازن في أسلوبه يتيح له وفرة في النغم، مع ما يتسم به أسلوبه عامة من رصانة وجزالة ونصاعة.

واون ثالث من كتاباته هو الرسائل الأدبية، وهي تُعدُّ بالعشرات، ويكفي أن نرجع لعنوانات المطبوع منها لنرى مدى تنوعها وأنها تناولت جوانب كثيرة من المجتمع ومن المسائل الكلامية ومن الأخلاق ومن الطوائف كالترك والمعلمين والقيان والمغنين غير ماله من رسائل في حجاج النبوة واستحقاق الإمامة وخسَلت القرآن. وكثير منها مكتوب بأسلوب الجنل والمناظرة، إن لم نقل إنها جميعها كتبت بهذا الأسلوب ونكتفي بعرض رسالة منها ولتكن رسالته<sup>(١)</sup> في فخر السودان على البيضان، وقد عرض فيها مناقب السودان ممثلة في شخصيات بارزة مثل لقمان الحكيم وسعيد بن جبير العبد الصالح الذي قتله الحجاج وبلال الحبشي والمقداد الصحابي الجليل أول من عمداً به فرسه في الإسلام، ومثل مكحول الفقيه والحيتقطان الشاعر الذي يفنخر بقومه، ويذكر قصيدة له تحتج بها العجم والحبش على العرب، ويشرح أبياتها، ومثل سُنَيْح بن رباح المعاصر لجرير ويروى قصيدته في الفخر بالزنج، ويذكر أبناء الزنجيات من العرب مثل العباس بن مرداس وعنزة الفوارس. ويذكر من احتجاجهم أنهم ملكوا ذات يوم بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة وقتلوا ذا نواس وأقبال (تابعة) حمير، ويذكر مشاركتهم في بعض الأحداث والحركات السياسية في العصرين الأموي والعباسي، ثم يقول:

«الناس مجمعون على أنه ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم وعلما أغلب من الزنج... وهم أطبع الخلق على الرقص الموزون من غير تأديب ولا تعليم. وليس في الأرض أحسن حُلُوقاً منهم، وليس في الأرض أخف على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قوم أذرب (أفصح) ألسنة، ولا أقل تمطيلاً منهم... والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فلا يستعين بلمتمة ولا بسكمتة حتى يفرغ من كلامه. وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعم منهم فيهما، وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه

(١) انظر الرسالة في مجموعة رسائل الجاحظ.

(نشر مكتبة الخانجي) ١ / ١٧٧ - ٢٢٦.

الجماعة من الأعراب وغيرهم ، وهم شجعان أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هي خصال الشرف . والزنجي مع حسن الخلق وقلة الأذى لا تراه أبداً إلا طيب النفس ضحوك السنّ حسن الظنّ ، وهذا هو الشرف » .

ويرد على أناس قالوا إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ويقول لو كان البخل بمقدار قوة العقل ، لكان الصقالية أعقل من الروم لأنهم أبخل منهم والروم أشد عقولا . ويقول لخصومهم إنكم أقررتم لهم بالسخاء وادعيتم عليهم ما لا يُعرف من ضعف العقل ، ولو كان هذا القياس صحيحاً لكان الجبان أعقل من الشجاع . ويذكر فخر الزنج بملوكهم . ثم يعود إلى ذكر طائفة من شعرائهم وافتخارهم بالنجاشي الذي أكرم المهاجرين إليه من الصحابة ، ثم يقول بلسانهم :

« ونحن أهولُ في الصدور وأملأ للعيون ... كما أن الليل أهولُ من النهار . . .  
 ودُهْمَ الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى ، وجلودها أئمن وأنفع وأبقى ،  
 والحُمُرَ (ج حمار) السود أئمن وأحسن وأقوى ، وسودَ الشَّاءِ أدَسَمُ ألباناً وأكثر  
 زبداً . . . وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة ، وأشد بيوسة ،  
 والأسد الأسود لا يقوم له شيء ، وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الأسود  
 ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سُودَ الجنود  
 . . . وأحسن الخضر ما ضارع السواد ، قال الله عز وجل : (ومن دونهما جنتان)  
 ثم قال لما وصفهما وشوق إليهما : (مُدَّهَامَتَان) قال ابن عباس : خضراوان من  
 الرّيّ سوداوان ، وليس في الأرض عودٌ أحسن خشباً ولا أغلى ثمناً ولا أثقل وزناً . . .  
 ولا أجدر أن ينسب فيه الخطُّ من الآبنوس . . . والإنسان أحسن ما يكون في العين  
 ما دام أسود الشعر ، وكذلك شعورهم في الجنة ، وأكرم ما في الإنسان حدقته وهما  
 سوداوان ، وأكرم الكحل الإنسيدي ، وهو أسود . . . وأنفع ما في الإنسان له  
 كبده » .

ونحنس كأن الكلام سيول تتدافع ، وهي سيول تحيط بفكرة السواد وترفع منها  
 محصية إحصاء دقيقاً مواقعه في الطبيعة وفي الحيوان وفي الجماد وفي الثمار والأشجار  
 وفي الزروع والأعواد والأخشاب وفي الإنسان وفي الجنة ونعيمها الخالد . وكل ذلك

يسوّى في أسلوب الازدواج وما يحمل من متاع موسيقى للأذان والأسماع . ويتحدث الجاحظ عن اقتران السواد بالشدة والصلابة والصرامة ، وأنه لا يوجد لون أرسخ في جوهره من السواد ، ويذكر أن العرب تفخر بسواد اللون وأنه كان كثيرون من سادتهم سوداً دهماً . ويتحدث عن كثرة عدد الزنج ، وكيف أن كثيرين من العرب مثل الفرزدق كانوا يفضلون زوجاتهم السودانيات . ويجعل سكان الجزر الهندية وكذلك القبط جنساً من السودان ويذكر أن إبراهيم الخليل تزوج منهم امرأة ولدت له إسماعيل عليه السلام . ويقول إن الله تعالى لم يجعلهم سوداً تشويهاً لخلقهم ، وإنما فعلت بهم ذلك البيئة ، ويسلك فيهم من العرب بنى سليم بن منصور وكل من نزل الحرة لسريان السواد فيهم ، ويقول إنه بلغ من أمر تلك الحرة (حرة بنى سليم) أن طباعها ونعامها ، وهوامها وذبابها ، وثعالبها وشاعها ، وحميرها ونخيلها ، وطيرها ، كلها سود .

ونحس في حرارة دفاعه عن السودان كأنه يدافع عن أصوله إذا صحَّ أن جده كان عبداً أسود . وأكبر الظن أنه أول من أشاد بالسودان في عصره ، وكأنما أصبح لهم شيء من الخطر في الحياة الاجتماعية العباسية ، ولم تمض على وفاته سوى عشر سنوات حتى شبت ثورة الزنج التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع . ولون رابع من كتاباته هو النثر القصصي ، إذ كان بارعاً في تصوير الشخصيات والنفوس ، ولو أنه عرف الأدب التمثيلي لأسعفته ملكته في المناظرة والحوار بقصص تمثيلية كثيرة ، وهو بحق لا يبارى في وصف الحركات الجسدية والمشاعر النفسية ، ومن خير ما يصور هذه النزعة القصصية عنده أقصوصته في كتابه الحيوان عن «القاضي والذباب» وهي تجرى على هذه الصورة الرائعة (١) :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سَوَّار ، لم ير الناس حاكماً قط ولا زَمِيئاً (٢) ولا رَكِيئاً (٣) ، ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذى ضبط وملك . كان يصلّى الغداة (٤) في منزله ، وهو قريب

(١) الحيوان ٣/٣٤٣ .

(٢) ركيئا : رزينا .

(٢) زينا : وقوراً .

(٤) الغداة : صلاة الضحى النافلة .

الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه ، فيحسبني ، ولا يتكفي ، فلا يزال مُنتصباً ، لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحلُّ حُبُوتَه<sup>(١)</sup> ، ولا يحوّل رجلا عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيقينه ، حتى كأنه بناء مبنئ أو صخرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب . . . كذلك كان شأنه في طيوال الأيام وفي قِصارها ، وفي صيفها وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه في السهاتين<sup>(٢)</sup> بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال الدسكُتَ ، ثم تحول إلى مؤق<sup>(٣)</sup> عينه ، فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عَضِّه ونفاذ خُرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبيته<sup>(٤)</sup> أو يغضن وجهه أو يذب بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكتن جفنه ، ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خُرطومه في مكان كان قد أواهاه قبل ذلك ، فكان احتمال له أضعف وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى . فحرك أجنفانه وزاد في شدة الحركة وفي فتح العين وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلبح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بُدّاً من أن يذب عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيونُ القوم إليه ترمقه . فتنحى عنه بقدر ما ردد يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألبأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كُمه ، ثم ألبأه ، إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمثائه وجلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألجج من الخسفساء وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجيبته نفسه ، فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً . وقد علمت أني عند الناس من أزمّت

(٣) المؤق : طرف العين مائل الأنف .

(٤) أرنبته : طرف أنفه .

(١) يحسبني : من الحيوية ، وهي أن يجمع

الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٢) السهاتين ؛ مثنى سهاط وهو الصف .

الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعفُ خلقه ، ثم تلا قواه تعالى : ( وإن يسئلبهم الذُّبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ ) .

والأفصوصة تتألف من ثلاثة أجزاء واضحة ، أما الجزء الأول فيصف فيه الجاحظ وقار القاضي عبد الله بن سَوَّار وتزمته وما بلغه من سيطرته الشديدة - التي لم يبلغها أحد - على نفسه وحركته . وهي سيطرة كانت تظل تلازمه طوال اليوم من الغداة حتى صلاة المغرب ، بل لكأنما أصبحت له فطرةً ثابتة ، فإذا هو يجلس مُحْتَبِيئاً غير متكى في المسجد ، منتصباً كأنه سارية أو عمود من أعمدته ، لا يتحرك له عضو ولا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا يغيرُ وضعاً له في جلسته ، حتى لكأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة . ويقول إنه يتخذ هذا الوضع لا في يوم من أيام السنة ، بل في جميع أيامها طولها وقصارها ، وشيء منه لا يتحرك ، لا رجل ولا يد ولا رأس ، حتى إذا اجتمع الناس له في سماطين وعظامٍ بليغاً . وهذا هو الجزء الأول في القصة أو الأفصوصة ، ويليه جزء ثانٍ يصور فيه الجاحظ إلحاح الذباب الضعيف على هذا البناء الضخم من الوقار والتزمت والرزانة وهو يسترسل في العظة ، ويصمد البناء لهذا الإلحاح فترة ، ثم تأخذ قواه في الوهن شيئاً فشيئاً ، والجاحظ يلاحظ ويسجل ملاحظاته مصوراً أدق الدقائق من حركة الذباب وكيف تحول من أنف القاضي إلى مؤقته ، والقاضي يستشعر وقاره صابراً صبراً عظيماً على عَضِّ الذباب لمؤقته ونفاذ خرطوميه فيه دون أن يُغْمَض طرفه أو يَغْضَن وجهه أو يذبّه . ويظل على وقاره صابراً يوجهه الذباب ويحركه ، حتى إذا نفذ صبره أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم يتنحّ الذباب وظل في إحراقه وإيجاعه ، فوالى بين الإطباق والفتح وهو لا يفقد وقاره . وتنحى الذباب قليلاً ثم عاد بأشد مما كان ، لأن المكان كان قد وهى ، فكان احتمالُه له أضعف ، فحرك أجبفانه وزاد في شدة الحركة وفي تتابع الفتح والإطباق . فتنحى الذباب عن المؤق ولم يلبث أن عاد إلى موضعه ، وما زال يلحّ على القاضي حتى نفذ صبره ، فذبّ عن عينيه بيده وعيرون الجالسين أمامه ترمقه . وتنحى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه . حينئذ خرج عن وقاره المألوف إذ لم يجد بداً أن يذبّ عن عينيه بطرف كفه . وعأوده مراراً ، وهو يتابع ذبّه بطرف الكم . و تنتقل مع الجاحظ إلى الجزء الثالث من الأفصوصة وفيه يصور تعلق أعين السامعين ،

الذين شهدوا المنظر بالقاضى ، ناظرين إليه وكأنهم يريدون منه تعليقاً أو عظة .  
 ويبدأ ببيان إلحاح الذباب ، ويعترف بضعفه أمام أضعف مخلوقات الله ، ويصرّح  
 بأن الذباب غلبه وقهره وفضحه ، وأنه لا يختلف في ذلك عن بنى جنسه بشهادة  
 الآية القرآنية الكريمة . والأفصوصة محبوكة حبكاً دقيقاً بما أودعها الحاحظ من  
 دقائق التصوير والتفاصيل ، وكأنها مشهد نراه بأعيننا إذ نقله لنا بمخاديفه نقلاً واعياً ،  
 أو قل نقل عين بصيرة لا يفوتها شىء في الرؤية الحسية ولا في الرؤية النفسية .

ولون خامس في كتابات الحاحظ الأدبية هو كثرة ما أذاع فيها من نواذر  
 ترويحاً عن نفس القارئ وتنشيطاً له ، على نحو ما صور ذلك بنفسه فيما أسلفنا  
 من الحديث عن خصائصه ، وقد وضع لها قاعدة لغوية عامة ألا تغير ولا تبدل  
 صورتها اللفظية ، سواء جرت على السنة البدوية أو السنة العامة ، يقول (١) :

« وبتى سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن  
 تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها  
 وأخرجتها مخارج كلام المؤلدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل  
 كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نواذر العوام ومُسلحة من مُسلح الحشوة والطعام  
 فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك  
 مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى  
 أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحتهم لها » .

وطبق هذه القاعدة على نفسه تطبيقاً شديداً ، فالنادرة تُروى بألفاظها كما  
 نَدَّت من السنة أصحابها ، وإذا كان لفظها عامياً أو أعرابياً مسرفاً في البداية  
 ظلت كما اجتُلبت دون أى تعديل ، فإنها إن عُدلت مُسخت وأصبحت مشوهة  
 الخلق ، وفازقتها طبيعتها ، ولم تعد مضحكة . وتكثر النواذر في البخلاء بل كل  
 الكتاب نواذر إن صح هذا التعبير ، وهو يعرض فيه شخصيات المجتمع الغدة  
 الفلسفية والكلامية ومحركاته من شعبية وغير شعبية وكثيراً من تقاليد ومطامع  
 وملايسه ، فكل ما في المجتمع البصرى من صور حياة يعرض عرضاً دقيقاً بكل  
 شياته وسماته . وله في المعلمين كتاب ملاء بنواذرهم ، ونسوق له هذه النادرة  
 التى صور فيها حمق المعلمين وضعف عقولهم للملازمتهم الصبئية ، قال :

« كنت ألفت كتاباً في نوادر المعلمين وما هم عليه من الغلظة ، ثم رجعت عن ذلك وعزمتُ على تقطيع الكتاب ، فدخلت يوماً قرية ، فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة ، فسأمت عليه فردَّ عليَّ أحسن ردِّ ، ورحَّب بي ، فجلست عنده ، وباحثته في القرآن ، فإذا هو ماهر ، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الأدوات ، فقلت : هذا والله مما يقوى عزمي على تقطيع الكتاب . وكنت أختلف إليه وأزوره ، فعجبت يوماً لزيارته وطرقت الباب ، فخرجت إليَّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيِّدك . فدخلتُ وخرجتُ ، وقالت : باسم الله ! . فدخلتُ إليه ، وإذا به جالس كئيباً ، فقلت : عظمَّ الله أجرك ( لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ) ، ( كلُّ نفس ذائقة الموت ) ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذي توفي ولديك ؟ قال : لا ، قلت : فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتي . فقلت في نفسي : هذه أول المناحس . فقلت : سبحان الله ! النساء كثير ، وستجد غيرها ، فقال : أتظن أني رأيتها ؟ قلت : هذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت منَّ لم ترَّ ؟ فقال : اعلم أني كنت جالساً في هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق ( النافذة ) إذ رأيت رجلاً عليه بُردٌ ( ثوب ) وهو يقول :

يا أمَّ عمرو جزاك الله مكرمةً ردىَّ على فؤادي أينما كانا  
لا تأخذين فؤادي تلعبين به فكيف يلعبُ بالإنسان إنسانا

فقلتُ في نفسي : لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرَّ ذلك الرجل بعينه ، وهو يقول :

لقد ذهب الحمارُ بأمِّ عمرو فلا رجعتُ ولا رجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنتُ عليها ، وأغلقتُ المكتب ، وجلست في الدار ، فقلت : يا هذا : إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قويت عزمي على إبقائه ، وأول ما أبدأ فيه بك إن شاء الله .

والنادرة طريفة منتهى الطرافة ، والمعلم فيها يأخذ سمياً جاداً ، يزينه في أول الأمر علمه الواسع بالقرآن وتفسيره وبالفقه والنحو وبأشعار العرب وما شدا من علوم الأوائل أو علم المعقول كما يقول الجاحظ ، حتى ظن أنه كامل الأدوات وعزم على تقطيع كتاب كان أُلِّمَ في نوادر المعلمين وغفلتهم وحمقهم. ويصحبه فترة ، ويلاحظ أنه أغلق كتابه فيزوره في داره، وإذا هو جالس جلسة حزين مكتئب ، فظن أنه فقد عزيزاً لديه ، وأخذ يسأله عنه ، وهو يجيب جاداً ، حتى عرف أنه فقد معشوقته . وكأنا أطلّ حمقه على الجاحظ ، وإذا هو يقول له إنه لم يرها ، وتتوالى غفلة في هذا الحب الأحمق الذي تهبوى فيه كل قواعد المنطق ، وكأنا في مسرح هزل نقضى فيه إلى الضحك ، وكلما مضينا في النادرة أغربنا فيه ، لا نتوقف ، وكأنا اختلّ توازننا ، أو كأننا نندفع في انحدار بقوة ولا نملك الوقوف أو السيطرة على أنفسنا من هذا السيل الجارف للغفلة المحسمة وما يُطَوَى فيها من حمق فظيع ، حمق يدفعا إلى الضحك العريض . ولعل من الطريف أن الجاحظ كان يتندّر على كل شيء حتى على نفسه وشكله القبيح ، ويروى عنه أنه قال : « ما أخرجني إلا امرأة مرت بي إلى صائغ فقالت له : اعمل مثل هذا ، فبقيت مبهوتاً ، ثم سألت الصائغ فقال : هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان ، فقلت : لا أدري كيف أصوره ، فأنت بك لأصوره على صورتك » .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شخصية الجاحظ الأدبية وخصائصه الفنية في كتاباته . ومن المؤكد أن العربية لم تعرف كاتباً فرض نفسه على عصره والعصور التالية كما عرفت في الجاحظ الذي ملأ الدنيا وشغل الناس بملكاته النادرة ، وما وصلها به من ذخائر الثقافات الأجنبية ، وما جسدها فيه من طوابع عقلية ومن جيد وهزل ومن نقل لكل صور الحياة في مجتمعه ومن استطرادات تحمل كثيراً من الطُرف والنوادر ون أسلوب مليء بالنغم ، يجرى فيه دائماً الازدواج الذي يروع القارئ بجبرسيه ، إذ يُمتنع الألسنة حين تنطق به والآذان حين تُصغى إليه ، كما يُمتنع بمضامينه العقول والأفئدة .

## ابن قتيبة (١)

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، ولد سنة ٢١٣ للهجرة ببغداد وقيل بالكوفة ، أصله فارسي أو تركي من مرو بخراسان ، ومن ثم نُسب إليها ، فقيل المروزي ، اِخْتِسَافَ في صباه إلى الكتّاب ، فحفظ شيئاً من القرآن الكريم والحديث النبوي والأشعار وشدا شيئاً من الفقه والنحو والحساب ، ولم يكذب عن الطروق حتى أخذ يختلف إلى المساجد الجامعة بموطنه بغداد يأخذ عن علمائها كل ما عندهم من علوم اللغة والشريعة والحديث ، وعكف على المترجمات يقرأ فيها ويستوعب ، وخاصة ما تُرجم عن الفارسية ، ولع اسمه في بيئة الفقهاء ، فتولّى القضاء بدينور ، ولذلك يقال له الدينوري . وعاد إلى بغداد مؤثراً الاشتغال بالتدريس والتعليم حتى توفي سنة ٢٧٦ للهجرة . وقد أكب على كتب الجاحظ يدرسها ويتمثلها ، مع أنها كانا على طرفي نقيض ، فقد كان الجاحظ معتزلياً كما مرّ بنا ، وكان ابن قتيبة سُنيّاً ، وله كتابان : مشكل القرآن وتأويل مختلف الحديث ، وفيهما وخاصة في الثاني يحمل على الجاحظ والمعنزلة حملات شعواء ، وهما منشوران . وله بجانبهما كتب كثيرة منها كتاب في الفقه وكتاب في دلائل النبوة وغريب القرآن وكتب غيرها كثيرة في مختلف الميادين سقطت من يد الزمن . ومن كتبه المنشورة المعارف وفيه يتحدث عن مبدأ الخلق وقصة الطوفان نقلا عن ترجمة للتوراة ، ويُعقب ذلك بتاريخ الأنبياء والرسل والعرب الجاهليين وسيرة الرسول عليه السلام ، ثم أخبار موجزة عن العلماء في كل فن وعن الفرس قبل الإسلام . وله كتاب الأشربة وهو منشور بدمشق وكتاب الميسر والقيداح وهو منشور بالقاهرة وكتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبّهة وهو منشور أيضاً بالقاهرة ونُشر

وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٥ والديباج

لابن فرحون طبع القاهرة ص ٣٥ وشذرات الذهب

٢ / ١٦٩ ومرآة الجنان لليافعي ٢ / ١٩١ .

(١) انظر في ابن قتيبة الفهرست ص ١٢١

والأنساب للسعدي الورقة ٤٤٣ وتاريخ بغداد

١٠ / ١٧٠ وإنباء الرواة للقفطي ٢ / ١٤٣

ونزهة الألباء (نشر دار نهضة مصر) ص ٢٠٩

باسمه كتاب الإمامة والسياسة وهو منحولٌ عليه . ومن أهم كتبه كتاب الشعر والشعراء وهو تراجم قصيرة لشعراء العرب حتى عصره ، وهو منشور مراراً . وله كتاب معاني الشعر الكبير . وألف طائفة من الكتب لتثقيف الكتّاب الناشئين ؛ منها كتابه « أدب الكاتب » ، الذي عرضنا له في غير هذا الموضع ، وهو يمدُّ الكاتب فيه بثقافة لغوية واسعة ، وأهم منه كتابه « عيون الأخبار » وهو يمدُّ الكاتب فيه بكنوز الثقافات التي تُسَعِّنه في مادة عمله .

وابن قتيبة يُعَدُّ أكبر مؤلف أدبي ظهر في العصر بعد الجاحظ ، وهو سني محافظ والمثلك يكون من المنطقي أن تتضح محافظته في آرائه النقدية ، غير أنه كان فيما يبدو يوازن بين النزعة المحافظة لعصره والنزعات المجدِّدة المعتدلة عند الجاحظ وأمثاله من المعتزلة . ويتضح ذلك في مقدمته الطويلة لكتابه « الشعر والشعراء » إذ نراه يعلن أنه لن ينظر إلى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، فإن الله لم يقصر البلاغة على زمن دون زمن ولا خصَّ بها قومًا دون قوم . وهي نظرة مُنصفَة ، ولكنه يعود فيقول : « ليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين . . . فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيّد البيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصغفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يتردّ على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا الأواجن والطوامي ، أو يقطع إلى الممدوح منابت الرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على ذكر منابت الشَّيْح والحَسَنَة (١) والعرارة » وهي لا شك نظرة محافظة تستمد من الجوسني في العصر الذي حل محل جـو الاعترال منذ فاتحة عهد المتوكل . وكانت هذه النظرة تلتقي مع النظرة السابقة التي لا تضع في موازين القيمة الشعرية قدم الشعر وحدائته ، حتى لا يكون محافظاً جامد العقل ، بل هو محافظ أميل إلى روح التجديد والمعاصرة . ومرّ بنا في غير هذا الموضع أنه كان أحد خصوم الشعوبية ، بل كان ثاني اثنين خاضا معركة حامية مع أصحاب هذه النزعة ، وعرضنا هناك لمصنّفه : « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وكانت له وراء ذلك في نفس الموضوع كتب مختلفة .

(١) الحنو والعرارة : من أزهار البادية .

وأهم من هذا الموقف له ضد الشعوبية أن نجده يُدخل بقوة الثقافات الأجنبية: اليونانية والفارسية والهندية على الثقافة العربية الإسلامية، ويعمل على تكوين مزيج موحد منها جميعاً، بحيث لا يُشغَل أصحاب كل ثقافة بالدعوة والترويج لها، مما أحدث هذا الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب الذي طال عليه الأمد منذ عهد المهدي حتى عصره. وحقاً حاول ذلك الجاحظ من قبله، ولكن غلبة النزعتين الكلامية والأدبية عليه حالت دون النفوذ إلى نهاية الغاية، وكانت الثقافة اليونانية أكثر شيء يشغله، حتى ليقول: «لا يكون المتكلم جامعاً لأفطار الكلام متمكناً في الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة»<sup>(١)</sup> وأشار غير مرة إلى أن كتابه «أخذ من طُرفِ الفلسفة». ولم يكن اليونانيون أصحاب النزعة الشعوبية في العصر، فقد كان الفرس هم الذين يحملون علمها ويبدلون قصارى جهدهم في الدعوة لها مشيرين دائماً إلى كتب الآداب الفارسية. فكان لا بد كى يُقضى على هذه النزعة الحادة من أن تلتقى — على يد كاتب عظيم — ثقافتها وكذلك الثقافة اليرزانية والهندية بالثقافة العربية الإسلامية، وتدخل جميعها في مجرى النهر العربي الإسلامي بحيث تتلاشى فيه نهائياً، ولا يصبح لها وجود مستقل، فوجودها جزء لا يتجزأ من وجود الثقافة العربية الإسلامية العامة.

وهو ما نهض به ابن قتيبة في أروع صورة، إذ مضى ينسّق مختارات ومقتطفات من الآداب الفارسية، مع مقتطفات ومختارات من الآداب العربية الخالصة ومع مقتطفات ومختارات من الثقافتين الهندية واليونانية، وكانت ثمرة ذلك أربعة مجلدات ضخمة ألقت كتابه «عيون الأخبار»، وقد وزعه على عشرة كتب، أولها كتاب السلطان، وفيه يتحدث عن سيرته وسياسته وصُحْبته واختياره للعمال والقضاة والحجّاب والكتّاب، ويبدوه بأحاديث نبوية، ثم يذكر بعض وصايا لشخصيات عربية في الحكم وسياسة السلطان، ولا يلبث أن يقول: «وقرأت في كتاب من كتب الهند: «شر المال ما لا يُسْتَفَقُ منه، وشرُّ الإخوان الخاذل، وشرُّ السلطان من خافته البرىء، وشرُّ البلاد ما ليس فيه خِصْب ولا أمن... وخير سلطان من أشبه النَّسْر»

حواله الجيفُ لا مَنْ أشبه الجيفة حولها النسورُ» ويذكر أقوالا لابن مسعود وعمر بن الخطاب ، ثم ينقل فصلاً طويلاً من كتاب اليتيمة لابن المقفع وما يصور من الأدب الأخلاقي في عهد ملوك الفرس الساسانيين ، ثم يقول : « وقرأت في التاج (وهو في سيرة أنوشروان) لبعض الملوك : هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار ، وألباب الملوك مشغولة بكل شيء يتجلى ، وألباب السوق مشغولة بأيسر الشيء » .

ويعود إلى النقل عن بعض النابهين من العرب ، ثم يقول : « وقرأت في بعض كتب العجم كتاباً لأردشير بن بابك إلى الرعية ، وينقل الكتاب جميعه ، ويعقب عليه بكتاب من أرسططاليس إلى الإسكندر وفيه : « املك الرعية بالإحسان إليها تظنم بالحبة منها ، فإن طلبك ذلك منها بإحسانك ، هو أدم بقاء منه باعتسافك ، واعلم أنك إنما تملك الأبدان ، فتخطها إلى القلوب بالمعروف ، واعلم أن الرعية إذا قدرت أن تقول قدرت على أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل » . ويتلو ذلك بقوله : « وقرأت في كتاب الآيين (في أنظمة الملك والدولة الساسانية) أن بعض ملوك العجم قال في خطبة له : « إني إنما أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضا ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر »

ويذكر أخباراً عن أنوشروان ومعاوية وعبد الملك بن مروان وعمر الفاروق وعن سياسة الحجاج في رعيته ، ثم يقول : « وقرأت في كتاب التاج : قال أبرويز لابنه شيرويه وهو في حبسه : « لا توسع على جندك فيستغنوا عنك ، ولا تضيّق عليهم فيضجوا منك ، أعطيهم عطاء قصداً ، وامنعهم منعاً جميلاً ، ووسع عليهم في الرجاء ، ولا توسع عليهم في العطاء » . ويروي عن عمر بن الخطاب « إن للناس نعمة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجزوة وضغائن محمولة ، أتم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله والآخر للدنيا فأتر نصيبك من الله ، فإن الدنيا تنفذ والآخرة تبقى . . . وإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة بهيمة مرت بواد خصب فلم يكن لها هم إلا السمّ ، وإنما حثفها في السمّ » . ثم أخبار عن عبد الله بن الزبير في الرعية ، ولا يلبث أن يقول : وفي كتاب من كتب العجم أن أردشير قال لابنه : « يا بُنَيَّ إن الملك والدين أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر ، فالدين أس والملك حارس ، وما لم يكن له أس فهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع » ثم يذكر صفات ذميمة لا يصح

أن تكون في السلطان . ويتحدث عن اختيار العمال ويختم حديثه بقوله : قرأت في كتاب للهند « السلطان الحازم ربما أحبَّ الرجل فأقصاه واطَّرحه مخافة ضرِّه ، فعِلَّ الذي تسمع الحية لإصبعه ، فيقطعها لثلاث يتشتر سُسَمَها في جسده ، وربما أبغض الرجل فأكره نفسه على توليته وتقريبه لغناء يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه» . ويعرض لصحبة السلطان وآدابها وتغير السلطان وتلونه ، ويقول : « قرأت في كتاب للهند : صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطار ، وإنما تُشَبَّه بالجلبل الوعر فيه الثَّار الطيبة والسباع العادية ، فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشد . . . ولا خير في الشيء الذي في سلامته مال وجاه ، وفي نكته الجائحة والتلف» . وينقل عن بعض العرب ورجالهم وعن آداب ابن المقفع وعن بعض النساك والمعتزلة والوعاظ وعن بعض كتبه التي كتب بها إلى الحكام والوزراء وعن بعض الكتاب وعن أبرويز في بعض ما كتب به إلى ابنه شيرويه وعن بعض رجال الحكم من العرب ، ويستشهد ببعض الأشعار للقطامي وبشار وغيرهما ، ويعرض لخبايات العمَّال ، وينقل من كتاب التاج : أن أبرويز قال لصاحب بيت المال : « إني لا أحتملك على خيانة درهم ، ولا أحمدك على حفظ ألف ألف درهم ، لأنك إنما تحقن بذلك دمك وتعمَّرُ به أمانتك ، فإنك إن خُسنتَ قابلاً خنت كثيراً » . ويكثر في فصل القضاء المعقود في هذا الكتاب من النقل عن العرب وأحكام الإسلام ، ويروي كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ، وهو دستور عظيم في عدالة القضاء ونزاهته . وتتوالى فصول عن الأحكام والشهادات والظلم ، وفيها يكثر من النقل عن العرب نثراً وشعراً ، ويعود في الفصول التالية إلى النقل عن كتب الهند والفرس .

والكتاب الثاني كتاب الحرب ، وفيه يتكلم عن آدابها ومكايدها وأوقاتها وحييئتها وعُدَّدها وسلاحها ، ويبدوه بحديث عن الرسول عليه السلام وبعض وصايا أبي بكر وعمر للجيش وقوادها عند عقد الألوية ، ويذكرُ بعض ما قرأ في كتب العجم والهند ، ومما قرأه في الأخيرة : « الحازم يحذر عدوه في كل حال ، يحذر المواثبة إن قرب ، والغارة إن بَعُد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولَّتْ ، والمكر إن رآه وحيداً ، ويكره القتال ما وجد بُدّاً ، لأن النفقة فيه من الأنفس ، والنفقة في

غيره من المال». ويذكر بعض حِمْيَلِ الفرس والعرب في الحرب ، ويتحدث عن آداب الفروسية عند الأمتين ، ويُفِيضُ في الحديث عن الشجعان وإنشاد الشعر الحماسي .

والكتاب الثالث كتاب السؤدد ، ويتكلم فيه عن مخايله وأسبابه ، ويعرض لجوانب كثيرة من الشرف والأخلاق الرفيعة ، ويفتح فيه فصلاً للمزاح والرخصة فيه ، ويدعو إلى التوسط في الدين والحلم والعقل والغنى والإنفاق ، وكأنه يتأثر بنظرية الأوساط المعروفة عند أرسططاليس . ويُفرد الكتاب الرابع للطبائع والأخلاق المذمومة من مثل الحسد والغيبة والسعاية ، وفيها يقول : وقرأت في كتاب للهند : « فلما يُسْمَعُ القلب من القول إذا تردّد عليه ، فإن الماء ألين من القول ، والحجر أصلب من القلب ، وإذا انحدر عليه وطال ذلك أثّر فيه ، وقد تُقَطَّعُ الشجرة بالفئوس فَتَسْتَنْبِتُ ، ويُقَطَّعُ اللحم بالسيوف فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه والنصول تغيب في الجوف فَتُسْرَعُ ، والقول إذا وصل إلى القلب لم يُنْزَعْ ، ولكل حريق مطفيٌّ : للنار الماء ، وللسم الدواء ، وللحزن الصبر ، وللعشق الفُرقة ، ونار الحقد لا تخبو » . ويذكر أن واشياً وشى برجل إلى الإسكندر فقال له : « أتحب أن أقبل منك ما قلت فيه على أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال فكفّ عن الشرّ يكفّ عنك الشر » ، وينقل في هذا الكتاب عن كثيرين من العرب شعراً ونثراً ، ويستطرد إلى الحيوانات وطبائعها متأثراً باللاحظ ، ويعرض للحشرات وينقل فيها عن أطباء العصر ، كما يعرض للنبات . ويعقب الكتاب الخامس للعلم والبيان ، ويستهلّه بحديث عن الرسول ويقول : في كتاب للهند : العالم إذا اغترّب فعه من علمه كاف كالأسد معه قوته التي يعيش بها حيث توجه ، ويذكر عن بُزُرْ جِمِمْهَر أنه قيل له : بيمَ أدركتَ ما أدركتَ من العلم ؟ فقال بيكور كبكور الغراب ، وحرص كحرص الخنزير ، وصبر كصبر الحمار » ويذكر عن أفلاطون أنه قال : « لولا أن في قول لا أعلم سبباً لأني أعلم لقلت إنى أعلم » . ويروى بعض كلمات للمسيح عليه السلام ، ويفتح فصلاً للقرآن الكريم والحديث الشريف والفِرَق والأهواء في الدين ، ويعرض لبعض صور الكلام والشعر ، كما يعرض طائفة كبيرة من الخطب منذ الرسول عليه السلام إلى المأمون .

والكتاب السادس كتاب الزهد ، وفيه تبرز بجانب مواظب كبار النساك والوعاظ والزهاد المسلمين ثقافة ابن قتيبة الدينية لا الإسلامية وحدها ، بل أيضاً ثقافته بالكتب السماوية وكيف أنه عكف عليها وعلى كل ما يتصل بها يقرأ وينقل ، تارة مما كتبه أمثال وهب بن منبه عما أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى أنبيائه . وينقل من التوراة ومن الإنجيل ، من ذلك قوله : « قرأت في الإنجيل : لا تجعلوا كنوزكم في الأرض حيث يفسدُها السرسُ والدود وحيث يستنقب السراقُ ولكن اجعلوا كنوزكم في السماء ، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم » ويذكر أن رجلاً من الحواريين قال للمسيح : أتأذن لي أن أدفن أبي ؟ فقال له : دع المرقى يدفنون موتاهم . ويذكر له دعاء طويلاً حين أخذه اليهود ليصلبوه بزعمهم فرفعه الله إليه ، كما يذكر دعاءً لداود وتحميداً طويلاً ودعاءً ليوسف ، ويسرِّوي عن المسيح أنه قال : حبُّ الدنيا أصلُ كلِّ خطيئة ، والمال فيها داءٌ ؛ قيل : ما دأؤه ؟ قال : لا يسلم صاحبه من الفخر والكبر ، قيل وإن سلم ؟ قال : يشغله إصلاحه عن ذكر الله . وبذلك يكون ابن قتيبة قد أضاف إلى الثقافة الإسلامية ثقافة عامة بالكتب السماوية وأقوال أنبيائها المرسلين . والصلاة بين هذا الكتاب وكتاب الزهد في البيان والتبيين للجاحظ واضحة .

والكتاب السابع كتاب الإخوان ، وفيه يتحدث عن اختيارهم وما ينبغي أن يكون بينهم من الوشائج والصلوات والاشتراك في السراء والضراء . ، وتلقانا من حين إلى حين نقول عن بعض كتب الهند أو بعض ملوك العجم ، كما تلقانا أحاديث نبوية وأشعار وأخبار ونصائح ووصايا على ألسنة كثيرين من رجال العرب النابهين . والكتاب الثامن كتاب الحوائج واستنجاحها والمواعيد وتمجيزها ، ويظل فيه ينقل عن كتب العجم مثل قول بزرجمهر : « إذا أقبلت عليك الدنيا فأنتفق ، فإنها لا تفسني ، وإذا أدبرت عنك فأنتفق فإنها لا تبقى » . والكتاب التاسع كتاب الطعام وفيه يعرض صنوفه وأخبار العرب في ما كلهم وآداب الطعام والضيافة وأخبار البخلاء وأواني الأكل والحميمية وشرب الدواء والتخمسة والمياه والأشربة ومنافع بعض النباتات والبقول . وتلقانا نفس الثقافات العربية والفارسية واليونانية ، ويصرح بأنه ينقل في هذا الكتاب عن الجاحظ وأثر كتابه البخلاء واضح فيه ، ويذكر في الحميمية عن الطبيب اليوناني جالينوس أنه قيل له : إنك تُقبلُ من الطعام ؟ قال : غرضي من

الطعام أن آكل لأحياء وغرض غيرى من الطعام أن يتحسباً لياكل. وبالمثل يستنقل عن أبقراط اليونانى نقولا ، كما ينقل عن أطباء العصر العباسى مثل ابن ماسويه وعن كتاب الآيين الأعجمى . والكتاب العاشر كتاب النساء ، وفيه يتكلم عن أخلاقهن وما يقببلُ منهن وما يكترهُ والجمال والقبح والمهور والزواج وسياسة معاشرتهن والحوارى والقيان ومساوى النساء ، ويحكى هنا قصة حصار أردشير لمدينة الحضرة الأستورية التى يقال إنهما كانت قائمة فى الزمن القديم بين دجلة والفرات ، وكيف أن فتاة ملك الحضرة رآته فعشتمته ، وسرعان ما أرسلت إليه أن تدا له على موضع يفتتح منه المدينة إن هو وعددها الاقتران بها ، ووعددها ، فدلته على الموضع ، ودخل المدينة هو وجنوده .

ولعل فيما قلنا ما يصور بوضوح كيف مزج ابن قتيبة بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وكذلك ثقافة أهل الكتاب ، فكل الثقافات الأجنبية والعربية من مدنية ودينية استحالت عنده إلى هذه الصورة الجديدة التى نقرأها فى عيون الأخبار . وبلغت هذه الصورة من النجاح أنه خفقت صوت الشعوبية ، فإن الكنوز التى كانت تباهى بها تحوات إلى عالم العروبة على يد ابن قتيبة وأصبحت من لبه ، بحيث لم يعد هناك مجال للفخر بها ، إذ لم تعد مستقلة ولم تعد تشق لنفسها جداول تجرى فيها وحدها ، فقد صببت فى نهر العروبة الكبير وذابت فيه ، أذابها ابن قتيبة ببصيرته النافذة وقلمه الباهر ، وأكبر الدلالة على ذلك لاتسائل صوت الشعوبية تضاولاً شديداً مع السنين فقط ، بل أيضاً أنا لانعود نسمع عن ترجمات لكتابات الفرس الأدبية والتاريخية ، فقد أصبحت غير ذات موضوع بعد أن تداولت الأيدى كتاب عيون الأخبار ، وبعد أن أصبح المصدر الأساسى لكل من يريد التعرف على الآداب الفارسية وما يمكن أن يفيدته الأدب العربى منها ومن الثقافتين الهندية واليونانية وثقافة أهل الكتب السماوية . فكل ذلك قد أصبح تحت أيدى العرب وأبصارهم ، ولم يعودوا فى حاجة إلى مزيد منه ، ولذلك لم يهتموا فيما بعد بما دون الفردوسى فى الشاهنامه من شعر قصصى ولا بما كتب حافظ الشيرازى وغيره من شعر صوفى . وكان من آثار ذلك أن أعداء العرب لم يعودوا يوصفون بوصف الشعوبية والزندقة معاً ، فقد أصبحوا غالباً يوصفون بالزندقة والإلحاد

فحسب، وشاع ذلك على ألسن العرب وعلمائهم منذ أواخر القرن الثالث الهجري، مصورين بذلك بواعتهم وحقائقهم النفسية .

ولا نغلو إذا قلنا إن من أهم الأسباب في أن كتاب عيون الأخبار أخذ هذه المكانة الممتازة أسلوب ابن قتيبة فيه ، فإن كل هذه المواد الثقافية التي نسقتها سبقتها في أسلوب أدبي رائع ، أسلوب يمتاز بوضوحه واصطفاء ألفاظه والمزاوجة بينها على طريقة الجاحظ أحياناً ، وأحياناً يسترسل دون محاولة الازدواج، ولكن مع العناية باختيار الكلمات والملاءمة بينها بحيث لا تجد فيها أي نشاز ولا أي اضطراب أو انحراف ، فقد كانت اللغة مرنة في يده ، وكان لا يتأبى عليه أي لفظ ، ولا تستعصى عليه أي كلمة . وبهذا الأسلوب المتناسق وما يجري فيه من استواء صنف كتابه عين الأخبار جميعه ، بحيث غدا كأنه مصبوب في قوالب متماثلة ، قوالب تستريح لها الأذن ، وتجد فيها القلوب والعقول متاعاً لا ينفد ، وأقرأ سطره الأولى في المقدمة ، فإنها تطرد على هذا المنوال :

« الحمد لله الذي يعجز بلاؤه صفة الواصفين ، وتفوت آلاؤه عدد العادين ، وتسع رحمته ذنوب المسرفين ، والحمد لله الذي لا تحسب عنه دعوة ، ولا تخيب لديه طلبية ، ولا يضل عنده سعي ، الذي رضى عن عظيم النعم بقليل الشكر ، وغفر بعقود الندم كبير الذنوب ، ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين . والحمد لله الذي ابتعث فينا البشير النذير ، السراج المنير ، هادياً إلى رضاه وداعياً إلى محبته ، ودالاً على سبيل جنته ، ففتح لنا باب رحمته ، وأغلق عنا باب سخطه ... أما بعد فإن لله في كل نعمة أنعم بها حقاً ، وعلى كل بلاء أبلاه زكاة ، زكاة المال الصديقة ، وزكاة الشرف التواضع ، وزكاة الجاه بذله ، وزكاة العلم نشره ، وخير العلوم أنفعها ، وأنفعها أحملها مغيبةً ، وأحملها مغيبةً ما تعلم وعلم الله وأريد به وجه الله تعالى » .

وهذه القطعة في مستهل الكتاب تصور ضرباً من العناية بالألفاظ فيه يشبه عناية الجاحظ ، فالجاحظ يعمد إلى الازدواج أو العبارات المتقابلة ، وقد يجري السجع على لسانه في غير تكلف بالضبط كما نرى الآن عند ابن قتيبة . والعبارات الأخيرة التي رد فيها ابن قتيبة كلمة الزكاة ، وتعقب فيها الكلمة الأخيرة وردّها

كما في كلمة «أنفها» و «أحمدها» هذا الأسلوب بعينه نجده عند الجاحظ ،  
وكان ابن قتيبة تمثل أسلوبه بجميع خصائصه ونمضى معه في المقدمة ، فزراه  
يقول :

« وهذه عيون الأخبار نظمها لمغنيل التادب تبصرة ، ولأهل العلم تذكرة ،  
ولسائس الناس ومسوسهم مؤدباً ، وللملوك مستترأحماً ، وصنفتها أبواباً ،  
وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ،  
وعلى الدارس حفظها ، وعلى الناشد طلبها ، وهي لتمام عقول العلماء ، ونتاج  
أفكار الحكماء ، وزبدة المخلص ، وحياتية الأدب ، وثمار طول النظر ،  
والمتخير من كلام البلغاء ، وفيطن الشعراء ، وسيير الملوك ، وآثار السلف . »

ولو أننا لم نعرف أن ابن قتيبة هو الذي كتب هذا الكلام ، وسئلنا عن صاحبه  
لأجبنا توّاً الجاحظ ، إذ نشعر كأنما فصلّ من أسلوبه بخواصه من الموازنات  
والمعادلات بين العبارات ، بحيث تتقابل الكلمات في صفوف ، وكل كلمة كأنما  
تمسك بمثلتها في العبارة التالية ، وكل عبارة كأنما تصافح أختها السابقة ، فهي  
على وتيرتها ومن نفس جنسها ونوعها ، وكان هذا يحدث تماسكاً شديداً في أسلوب  
الجاحظ ، لولا ما يداخله أحياناً من استطراد . أما عند ابن قتيبة فلا استطراد  
ولا خروج من دائرة الفكرة التي يعالجها ، وكتابته من هذه الناحية مرتبة مبرّبة  
في أدقّ نسق . ويكفي أن ننظر في فهرس عيون الأخبار فنسرى الكتاب من  
كنبه العشرة يفتتح ، ولكل كتاب فصواه المترابطة معه ، وكأنها حلقات في سلسلة  
متتابعة وليس في داخلها ما يوهن العلاقات المنطقية بين الكلام ، بل الكأنا الكتاب  
خيطة ممتدة أحكمت فصواه ونسقت مواده تنسيقاً دقيقاً . وابن قتيبة يخطو  
بالتأليف الأدبي من هذه الناحية بعد الجاحظ خطوات واسعة ، إذ لا يسمح لأى  
فصل داخل في كتاب فضلاً عن الكتاب نفسه بأى استطراد يخلخل الكلام أو  
يفقده سياقه . ولكن إذا كان قد تفوّق على الجاحظ من حيث نسق التأليف فإن  
الجاحظ يتفوق عليه في وصله الأدب بمجتمعه ، على نحو ما صورنا من صنيعه في  
هذا الجانب . وحقاً نجد عند ابن قتيبة أشعاراً معاصرة له ، ولكنه لم يتحك  
أخبار الخلفاء والوزراء الذين عاصروهم على نحو ما حكى الجاحظ ، ولا حكى أخبار

طبقات المجتمع وخاصة الطبقة العامة . وهو لذلك لا يُعَدُّ كاتباً واقعياً على نحو ما يُعَدُّ الجاحظ ، وإن كان قد حاول أحياناً أن يقتفى أثره . ومَرَّ بنا أنه بلغ من واقعية الجاحظ أنه لم يكن يجد أى حرج فى أى شىء يخبجل منه المترمون ، حتى العَوَرَات كان لا يرى فى ذكرها أى بأس ما دام الكلام يستلزم ذكرها ، ويتابعه ابن قتيبة فى تقديمه لعيون الأخبار قائلاً : « إنما مثلُ هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مَدَاقِط الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين ، وإذا مرَّ بك حديثٌ فيه إفصاح بذكر عَوْرَةٍ أو وصف فاحشة فلا يَحْمِلَنَّكَ الحشوع أو التخاشع على أن تصعَّرَ خَدَّكَ ، وتُعَرِّضَ بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تُؤثِّمُ ، وإنما المآثِمُ فى شتَم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغييب . » . ومع ذلك فإنه لم يبلغ مبلغ الجاحظ فى صراحته ، إذ كان فى حقيقته محافظاً متمزناً لا يستطيع أن يترك لنفسه — مثل الجاحظ — العنان فى الصراحة دون أى مواربة .

ومرَّ بنا أن الجاحظ كان يجعل خلط الجلد بالهلز خاصة قوية من خصائص كتابته ، ومع أن ابن قتيبة كان من أهل السنَّة المحافظين الذين يأخذون أنفسهم بالجد والوقار نراه فى مقدمته لعيون الأخبار يعلن أنه سيأخذ بهذا المنهج فى كتابته ، يقول : « ولم أخله من نادرة طريفة ، وفضلة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة . . لأروحُ بذلك عن القارئ من كَدِّ الجِدِّ وإتعاَب الحق ، فإن الأذن مَجَّاجَةٌ ، وللنفس حَمَمٌ ، والمزح إذا كان حقاً أو مقارباً ، ولأحايينه وأوقاته ، وأسباب أوجبه مُشاكلا ، ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصغائر إن شاء الله . وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما رُوِيَ عن الأشراف والأئمة فيهما ، فإذا مرَّ بك أيها المتمزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به . » .

وإذا انتهينا — كما يقول ابن قتيبة — إلى باب المزاح والفكاهة وهو من أبواب كتاب السؤدد لاحظنا تَوّاً أن فكاهاته ونوادره من طراز آخر غير طراز الجاحظ ، فمنها كثير لا يثير ابتساماً ، وما يثير الابتسام قليل جداً ، ويكفى أن يقول إنها مما رُوِيَ عن الأشراف والأئمة لنعرف مقدماً أنها نوادر وفكاهات يمسح عليها الوقار وأنه يستلر أن ترتسم معها ابتسامة على الشفاه . ونسوق منها هذه النوادر عن الشَّعْبِيِّ (من علماء الكوفة) لتُعرَفَ طوابعها ومدى ما فيها من المزاح :

« دخل رجل على الشعبي ومعه في البيت امرأة ، فقال لهما : أيكما الشعبي ، فأجابه الشعبي : هذه . وسأل سائل الشعبي عن لحم الشيطان هل يجوز أكله ؟ فأجابه : نحن نرضى منه بالكفاف . ودخل على الأعمش زميله يعوده في مرض ، ونظر من حواه إلى المنزل وما فيه من أثاث بسيط ، ثم قال له : أما أنت فتُعَرَفُ في منزلك أنك لست من أهل القَرَرِيتين ( مكة والطائف ) عظيماً » .

وأين هذه النوادر ، من نادرة المعلم الأحمق التي رويناها آنفًا ، والتي مثَّلَ فيها الجاحظ حُصْمَتَهُ تمثيلًا هزليًّا مضحكًا ؟ . ولا ريب في أن هذا يرجع إلى اختلاف مزاج الشخصيتين ، فالجاحظ أديب فكه بطبعه متحرر من كل قيد ، يُضْحِكُ وتستغرق في الضحك ولا تستطيع أن تعود منه وتستردّ نفسك إلا بعد ضحك عريض ، وابن قتيبة أديب وقور تغلب عليه المحافظة وإن حاول التحرر ، ويغلب عليه استشعار الجحد ، وكأنه إذا هزَلَ أو تندرَّ خرج عن طبعه ، أو قل كأنه إنما كان يريد أن يتشبه بالجاحظ . ومن بقية هذا التشبُّه عنده في باب النوادر والمزاح أن نراه يزعم في تقديمه لكتاب العيون أنه سيحكى النوادر العامية بلفظها وبما فيها من لحن ، ومرَّ بنا كلام الجاحظ في هذا الموضوع وأنه ينبغي أن تظل النادرة العامية بصيغتها وأحسنها وإلا ضاع ما فيها من فكاهة إذا انقلبت ألفاظها من العامية إلى الفصحى وتبدلت صورتها الفكاهة ، ويقول ابن قتيبة محتجًّا لذلك : « اللّٰسِحْنُ إن مرَّ بك في حديث من النوادر فلا يذهبنَّ عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تعمدته ، لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها ، وسأمثل لك مثالا ، قيل لمزبَّد المديني ( المضحك ) - وقد أكل دُعَامًا كَطَّه ( أتخذه ) - في ( قِيء ) فقال : ما أقي ، أقي نَقَمًا ( مخنًا ) ولحم جدوى ! مررتي طالق لو وجدت هذا قيسًا لأكلته . ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ، ولاستبشعها سامعها » . والنادرة نفسها التي تمثَّل بها ابن قتيبة ثقيلة وتدلُّ - هي وما سبقها بوضوح - على أنه من مزاج آخر غير مزاج الجاحظ .

والجاحظ في الواقع قمة بعيدة المنال في الأدب العربي كله ، ومن الظلم لابن قتيبة أن نزنه به ونقيسه إليه ، فقد كان فريدًا في عصره والعصور السابقة جميعها ، ويكفي ابن قتيبة مجدًّا أدبيًّا أسلوبه الواضح الناصع الذي وصفناه وأنه أخرس إلى الأبد

أصحاب الشعوبية بما سوى العربية في عيون الأخبار من هذا الأدب العربي الرفيع الذي وسَّعَ مختلف الثقافات ومزج بينها بحيث أصبح له طوابع جديدة مميزة .

## ٤

سعيد بن حميد (١)

أبوه حُسيمُ بن سعيد فارسي الأصل ، كان من أهل النباهة في بغداد ووجهًا من وجوه المعتزلة وكان يُحسِّن نظم الشعر ، ولا نعرف متى وُلد له سعيد ، ويبدو أنه عُنِيَ به عناية شديدة منذ نعومة أظفاره ، فألحقه بكتّاب حفظ فيه شيئًا من القرآن والنقء والحديث والنحو واللغة والأشعار والحساب ، حتى إذا خطا خطوات في العقد الثاني من عمره دفعه إلى حلقات الدرس في المساجد ، ويُروى أنه عُنِيَ خاصة بأن يلحقه بملققة ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ وأنه سمع منه أرجوزة في نحو عشرين بيتًا وحفظها بمجرد سماعها ، مما يدل على ذكائه وقوة ذاكرته . ولم يكتف سعيد بملققة هذا العالم اللغوي الكبير ، فقد مضى يختلف إلى حلقات العلماء من كل صنف ، مُكسبًا عليها ناهلا منها متمثلا لما يقدم فيها من غذاء أدبي وفكري ، مما جعل المسعودي يقول عنه : « كان سعيد حافظًا لما يُستحسن من الأخبار ويستجد من الأشعار متصرفًا في فنون العلم ، مُمتنعًا إذا حدث ، مُفيدًا إذا جواس . ولعل ذلك ما جعل فضلا الشاعرة تُعجبُ به ، وتعقد بينها وبينه مودة ظلت فترة طويلة ، وظلا يتبادلان فيها الرسائل الشعرية ، على نحو ما مرَّ بنا في حديثنا عن فضل . وكان قدملاه الطموح بالنجاح في سامراء عاصمة الخلافة فتحول من بغداد إليها . ولا ريب في أن حلوة محضره وعدوبة أحاديثه جعلتا كثيرين من أدباء عصره تثرَّب أعناقهم إلى صحبته ، وكانت فيه دُعاة تجعل مجلسه خفيف الروح ، مما جعل أبا على البصير وأبا العيساء نديمي المتوكل يألفانه ويختلفان إلى مجالسه ، وتدور بينهما وبينه مداعبات ومعاتبات ومكائبات ، كما قال الرواة . ويبدو

رسائل سعيد بن حميد وأشماره ليونس  
أحمد السامرائي (طبع بغداد) وجمهرة  
رسائل العرب لأحمد زكي صفوت.

(١) انظر في ترجمة سعيد ورسائله الفهرست  
ص ١٨٥ والأغانى (طبعة الساسي) ٢ / ١٧  
ومروج الذهب ٤ / ٦١ وابن خلكان وكتاب

أنه كان ينتظم بين كُتَّاب الدواوين لعهد المتوكل ، إن لم يكن قد انتظم فيها قبل ذلك ، وإنما يدفعنا إلى هذا الرأي ما اشتهر به من تعصبه على آل علي بن أبي طالب تعصباً شديداً حتى ليقول ابن المعتز : « كان سعيد من أشد الناس تنصباً (عداء) لعلی وانحرافاً عن آل الرسول عليه السلام »<sup>(١)</sup> ويقول المسعودي : « كان يتنصب ويظهر التنسن والانحراف عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن الطاهرين من ولده » . ومربنا في غير هذا الموضع موقف المتوكل من العلويين وأمره بهدم قبر الحسين في كربلاء وانحرافه عن علي وآله ، وكأن سعيداً اعتنق أفكاره إما حقيقة وإما رياء للخليفة الموظف بدواوينه . على كل حال نظن في هذا الانحراف عند المتوكل وسعيد معاً أنه كان يعمل في ظله ، وأنه استحال بوقاً من أواقه . ويقول صاحب الفهرست إن له كتاب انتصاف العجم من العرب ويعرف بالتسوية ، والكتاب لم يصلنا ، ولا ندرى هل كان ينحرف عن العرب بدورهم انحرافاً شديداً أو انحرافاً خفيفاً ، على أن في كلمة ابن النديم أن الكتاب يُعرف بالتسوية ما قد يشير إلى أنه لم يكن شديد العصبية فيه على العرب وأنه إنما كان يطالب بالتسوية بينهم وبين الأعاجم ، والتسوية كما مر بنا في هذا الكتاب وكتاب العصر العباسي الأول لا تدخل في العصبية المنحرفة لدى بعض الأعاجم والمعروفة باسم الشعوبية . وفي أشعاره ما يدل على أنه كان معتزلياً مثل أبيه على نحو ما نرى في قوله<sup>(٢)</sup> :

قد قلتُ بالعدل ولكني عدلتُ في الحبِّ عن العدلِ  
فقلتُ بالإجبار مستغفراً لله من قولي ومن فعلي

فهو يؤمن بنظرية العدل على الله المعروفة عند المعتزلة ، والتي تتيح للإنسان حرية الإرادة والاستطاعة ، حتى يكن ثوابه وعقابه جزاء لما قدمت يداه ، بينما يذهب أصحاب الجبر إلى أن كل شيء بقضاء وقدر وأنه لا مفر من الاستسلام للمقادير .

ولعل في ذلك كله ما يصور شخصية سعيد وأنه كان مثقفاً ثقافة واسعة ، ثقافة بالعربية وبمواد المعرفة الأجنبية ، وهياً له ذلك أن يصبح من كُتَّاب الدواوين

(٢) كتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص

مبكراً . وما يزال يرقى فيها وأعين رؤسائها ترمقه وتلاحظه ، إذ كان شاعراً بارعاً  
وكاتباً نابغاً .

وكانت أولُ حادثةٍ لمع فيها اسمه البيعةَ للمتصر بعد مقتل أبيه المتوكل سنة ٢٤٧ ،  
فقد ذكر أن أحمد بن الحصيب وزير المنتصر قال له : ويملك يا سعيد ! أمعك  
كلمتان أو ثلاث تأخذ بها البيعة ؟ قلت : نعم وكلمات ، وعملتُ كتابَ البيعةِ .  
وهو كتاب طويل استهلَّه بقوله<sup>(١)</sup> :

« بسم الله الرحمن الرحيم . تبايعون عبد الله المنتصر بالله أمير المؤمنين بيعة طوع  
واعتماد ورضاً ، ورغبة بإخلاص من سرائركم ، وانسراح من صدوركم ، وصدق  
من نياتكم لامُكْرَهَيْنِ ولا مُجْبَرَيْنِ ، بل مقرّين عاملين بما في هذه البيعة  
وتأكيدها من طاعة الله وتقواه ، وإعزاز دين الله وحقه ، ومن عموم صلاح عباد الله  
 واجتماع الكلمة ، ولِسْمِ الشَّعْثِ ، وسكون الدهماء ، وأمن العواقب ، وعزِّ  
الأولياء ، وقسَمِ الملحدين . . . لا تشكّون ولا تُدْهِنون (تمالئون) ولا تُميلون ،  
ولا ترتابون ، وعلى السمع له ، والطاعة والمسائلة ، والنصرة والوفاء والاستقامة والنصيحة  
في السر والعلانية ، والخُفوف والوقوف عند كل ما يأمر به » .

وأكبر الظن أن صوت سعيد اتضح في هذه السطور القليلة ، فهو يُعنى  
أشد العناية باختيار لفظه ، وهو لا يطيل عباراته ، بل يجعلها قصيرة ، حتى لتصبح  
كلمة مثل : « طوع واعتماد ورضاً » ، ومثل « اجتماع الكلمة ، ولِسْمِ الشَّعْثِ ،  
وسكون الدهماء ، وأمن العواقب ، وعزِّ الأولياء ، وقسَمِ الملحدين » فالكلمات  
تتعاقب ، جزلة حقاً ، ولكنها خفيفة على الأفواه والشفاة ، إذ لا تلبث أن تحملها  
حتى ترسلها . ويظل كاتباً لأحمد بن الحصيب طوال خلافة المنتصر ، حتى إذا ولي  
الخلافة بعده المستعين سنة ٢٤٨ عزل ابن الحصيب من الوزارة ، واستوزر مكانه  
أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزيد وسرعان ما عزله واستوزر محمد بن الفضل  
الجزجاني ، فجعل رياسة ديوان الرسائل لسعيد بن حميد<sup>(٢)</sup> ، وبذلك أصبح  
الكاتب الأول في الدولة الذي تصدّر عنه جميع رسائلها الديوانية ، وما كتبه حينئذ  
رسالةً خطيرة عن محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أهل بغداد ، وكان المستعين قد

(١) انظر الطبري ٢٣٥ / ٩ وما بعدها .

(٢) طبري ٢٦٤ / ٩ .

نزلها سنة ٢٥١ بعداً عن سامراء مدينة الترك وبغنيهم ، فبايعوا المعز ، ونازلوا ابن طاهر ببغداد فهزهم ، حينئذ نراه يأمر سعيد بن حميد بكتابة رسالة تذكر الواقعة حتى تُقرأ على أهل بغداد في مسجد جامعها ، وهي رسالة طويلة طولاً شديداً فقتطف منها بعض الفقر التالية :

« ساروا نحو مدينة السلام ( بغداد ) معلنين للبعثى والاقتدار ، مظهرين للغي والإصرار ، فتأنأهم أمير المؤمنين ( المستعين ) وفسح لهم في النظرة ، وأمر بالكتاب إليهم بما فيه تبصيرهم الرشد . . . وأن يبين لهم ما سلف من بلائه عندهم من أسننى المواهب ، وأرفع الرغائب ، والاختصاص بسنى المراتب ، والتقدم في المحافل ، فأبوا إلا تمادياً ونفاراً ، وتمسكنا بالغي وإصراراً . . . وقابلوا الموعظة بالإصرار على الذنب ، وعارضوا التبصير بالاستبصار في الباطل . . . وصدقتهم أولياء الله ( جنود المستعين وابن طاهر ) في لقاءهم بقلوب مستجمعة لهم ، وعلم بأن الله لا يخلف وعده فيهم ، فجالت الخيل بهم جولة ، وعادت كربة بعد كربة ، طعننا بالرماح ، وضربنا بالسيوف ، ورشقنا بالسهام ، فلما مسهم ألم جراحها وكلمتهم ( جرحتهم ) الحرب بأنيابها ، ودارت عليهم رحاها ، وصدت لهم أبناؤها ظمناً إلى دمائهم ، ولتوا أدبارهم ، ومنح الله أكتافهم ، وأوقع بأسه بهم ، فقتلت منهم جماعة لم يحترسوا من عذاب الله بتوبة ، ولم يتحصنوا من عقابه بإنابة . . . فن قتل غودرت جثته بمصرعه ، ونقلت هامته إلى مصير فيه معتبرٌ لغيره ، ومن لاجىء من السيف إلى الغرق لم يجره الله من حذاره ، ومن أسير مصفود ( موثق بالأغلال ) يقاد إلى دار أولياء الله وحزبه ، ومن هارب بحشاشة نفسه . . . فرقماً أربعاً تجمعها النار ، ويشملها عاجل النكال عظةً ومعتبراً لأولى الأبصار . »

وواضح تقطيع العبارات وتقابل الكلم في الرسالة ، وكأننا بإزاء حائلك ، يقيس ثياباً مماثلة مقدرة على معانيها . وقد يتكامل التقطيع ، فيظهر السجع ، ولكنه ليس سجعاً متكلفاً ، فليس مردّه إلى محاولة صنعة ، وإنما مردّه إلى دقة التقطيع ، حتى لتأخذ العبارات شكل سجعيات متوالية . وما نزال نتنقل بين تقاطيع طريفة ، حتى نصل مع سعيد إلى تقسيم الجيش الذي دارت عليه الدوائر أقساماً أربعة :

فهم بين قتيل وغريق وأسير وفار على وجهه لا يارى .  
ولسعيد تحميدات طريفة كان يضعها بين يدي رسائله الديوانية ، فمن ذلك  
تحميد كتب به في فتح نهض به القائد التركي وصيف ، يستهله بقوله (١) :

« أما بعد فالحمد لله الحميد المجيد ، الفعّال لما يريد ، الذى خلق الخلق بقدرته  
وأفضاه على مشيئته ، ودبره بعلمه وأظهر فيه آثار حكمته ، التى تدعو العقول إلى  
معرفة ، وتشهد لذوى الألباب بربوبيته ، وتدلل على وحدانيته ، لم يكن له شريك  
في ملكه فينازعه ، ولا مُعين على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه ، فليس يتصرف  
عباده في حال إلا كانت دليلاً عليه ، ولا تقع الأبصار على شيء إلا كان شاهداً له  
بما رسم فيه من آثار صنّعه ، وأبان فيه من دلائل تدبيره ، إعداراً بحجّته ، وتطوياً  
بنعمة ، وهداية إلى حقّه ، وإرشاداً إلى سبيل طاعته . . . والحمد لله العزيز  
التهّار ، الملك الجبّار ، الذى اصطفى الإسلام واختاره ، وارتضاه وطهره ،  
وأعلاه وأظهره ، فجعله حجّة أهله على من شاقهم (خالقهم) ووسيلتهم إلى  
النصر على من عتد (مال) في حقهم ، وابتغى غير سبيلهم » .

والسجع كثير في هذا التحميد ، وهو داليل على أنه ظهر ثمرة لكثرة التقاطيع في  
العبارات ، وإحساس الكتاب بأنه لا بأس من استكمال هذه التقاطيع ، ولكن  
لا على أساس الجور على المعاني ، وإنما على أساس الوفاء بها . وسعيد يستوفى في أول  
تحميده صفات الله جلّ شأنه من خلق وتقدير وعلم وحكمة في تدبير الكون ، مما  
يشهد بوحدانيته . ونحس أثر قراءته لمباحث المتكلمين حين يلمّ بالوحدانية إذ يقول :  
لو كان هناك إلهان أو آلهة لتنازعت فيما بينها على السلطان ، وأيضاً فإن هذا يؤول  
إلى أن يكون هناك آلهة تُعينه في الخلق وتساعده ، ولو صحّ ذلك لأصبح الله  
محتاجاً إليها وانتفت عنه ألوهيته ، إذ يسمه الضعف والعجز من بعض الوجوه ،  
ويعرض حجة على ربوبيته التأمل في خلق الإنسان وفي نظام الكون مما يهدى إلى  
طريق الرّشاد .

ولسعيد بجانب الرسائل الديوانية التي كان يكتبها في أثناء عمله بالدواوين  
رسائل إخوانية كثيرة ، منها تهنئات بعيد النيروز وشوق وعزاء واعتذار ودعوة إلى

مجالس الأُنس وشكر وهجاء واستمناح لبعض الأشخاص وتوصيات ، ونه  
طائفة منها بادئين بتهنئاته في عيد النيروز ، فمن ذلك رسالة إلى أبي صالح  
يزداد وزير المستعين<sup>(١)</sup> :

« النفسُ لك ، والمالُ منك ، والرجاءُ موقوفٌ عليك ، والأمرُ مصرُوفٌ إليك ،  
فما عسانا أن نُهندي لك في هذا اليوم ، وهو يوم سهَّلت فيه العادة ، سبيل الهدايا  
للسادة ، وكرهتُ أن نخليه من سنَّته فنكون من المقصرين ، أو ندَّعى أن في وسعنا  
ما يتقضى بحقك علينا فنكون من الكاذبين ، فاقصرنا على هدية تقضى بعض الحق ،  
وتقوم عندك مقام أجمل البرِّ ، وهي الثناء الجميل ، والدعاء الحسن ، لا زلتُ  
أيها الأمير دائم السرور والغبطة في أتم أحوال العافية ، وأعلى منازل الكرامة ،  
تمر بك الأعياد الصالحة ، والأيام المفرحة ، فتُخلِّقها وأنت جديد ، وتستقبل  
أمثالها ، فتلقاك ببهائها وجمالها . وقد بعثت الرسول بالسكر لطيبه وحلاوته ،  
والسفرجل لفاؤه وبركته ، والدرهم لبقائه عند كل من ملكه ، ولا زلتُ حلِّو المذاق  
على أوليائك ، مُرّاً على أعدائك ، متقدِّماً عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتك  
وتحسن أفنيتهم (ساحاتهم) بمثلك . »

والرسالة تحمل أسلوباً سعيداً وما يميزه من التقطعات المتوالي والمعاني المتقابلة ،  
فالنفس يقابلها المال ، والرجاء يقابله الأمر . ويسقط السجع سقوطاً طبيعياً ،  
كأنه ثمر يسقط من شجرة مورقة . ويمسح على ذلك لطف الحضارة ، وما يمتاز به  
أهلها من دقة الحسِّ ورهافة النوق ، على نحو ما يتضح في المعاني التي تحملها  
الهدية ، فالسكر رمز للحلاوة والسفرجل رمز للبركة والدرهم رمز لبقاء الوزير في عِزِّه .  
ويكتب برسالة مماثلة إلى الحسن بن مخلد وزير المعتمد على هذا المنوال<sup>(٢)</sup> :

« أيها السيد الشريف ! عشت أطول الأعمار بزيادة من العمر ، موصولة بقرائنها  
من الشكر ، لا ينقضي حق نعمة ، حتى تجدد لك أخرى ، ولا يمر بك يوم  
إلا كان مقصراً عما بعده ، مُوفياً على ما قبله . إنى تصفحت أحوال الأتباع الذين  
تجب عليهم الهدايا إلى السادة ، فالتستمت التأسى بهم في الإهداء ، وإنى إن

(٢) عين الأخبار ٣ / ٣٩ ، والمقد  
الفريد ٦ / ٢٨١ وديوان المعاني ١ / ٩٤ .

(١) المقدم الفريد ٦ / ٢٨٢ وديوان المعاني

أهديت نفسي فهي ملك لك ، لاحظ فيها لغيرك ، وإن رميتُ بطرفي إلى كرائمِ  
مالى وجدتها منك . . . وفزعتُ إلى مودتي فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة  
فأريت إن أنا جعلتها هديتي لم أجدد لهذا اليوم الحديد بيراً ولا لطفماً (هدية)  
ولم أفسد منزلة من شكرى بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصراً عن الحق ، والنعمة  
زائدة على ما تبلغه الطاقة ، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقلك هدية إليك ،  
والإقرار بما يجب لك بيراً أتوصّل به .

والرسالة تحمل في جوهرها معانى الرسالة السابقة ، وفيها نفس التلطف ، وإن  
كان قد ازداد رقة في الدعاء وفي التعبير عن الاعتذار بالتقصير ، فليس هناك  
ما يستطيع تقديمه حتى نفسه ومودته قد مهما من قبل ، ولم يبق في طاقته سوى الحمد  
والثناء والشكر الذى لا يمانله شكر ، وتتوافر التقطيعات في الرسالة ويظهر السجع  
أحياناً في خفة وبدون أى تكلف لجهد أو عناء . ويكتب لصديق عزّل عن عمله ،  
مسلماً له (١) :

« حفظك الله بحفظه ، وأسبغ عليك كرامته ، وأدام إليك إحسانه ، إن سرورى  
ببصرك أكثر من سرور أهل عملك بما خصّوا به من ولايتك . وقد كنت - أعزك  
الله - فيما يُربأ بك عنه بما أنت عليه في قدرك واستهاالك ، ولكننا رجونا أن يكون  
سبباً لك إلى ما تستحق ، فبطبنا نفوساً بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سلّمك  
منه ، ونسأله تمام نعمه عليك وعلينا فيك ، بتبليغك أملك وآمالنا فيك وشفع  
(قرن) ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات ، وأشرف المراتب ، ثم خصّك الله  
بجميل الصنّع ، وبلّغك غاية المؤمنين . إن من سعادة الوالى - حفظك الله - وأعظم  
ما يُخصّ به في عمله وولايته السلامة من بوائق (دواهي) الإثم ، ونوائب الدنيا  
وشرها ، والعاقبة مما يخاف منها ، وقد خصّك الله منها - بيمينه وطوّله (إنعامه)  
ما نرجو أن يكون سبباً لك إلى نيل ما تستحق من المراتب ، والله نسأل إيزاعك  
(إلهامك) شكر ما من به عليك ، وتبليغك غاية أملك في جميع أمورك ،  
برحمته وفضله . »

والرسالة طريفة غاية الطرافة إذ لا عكس سعيد العزاء عن العمل ، وجعله تهنئة

خليقةً بأن تُنصب لها أعلام السرور . ومضى يصور سروره وأنه يزيد على سرور أهل عمله حين جاءهم نبأ تولية هذا العامل عليهم . ويؤكد سروره بقوله إنه طاب نفساً ، وقد أحسن اختيار هذه الكلمة . ثم أخذ يحمد له السلامة من هذا العمل ويعدُّ ذلك نعمة ليس فوقها نعمة ، ويدعو له بأن يبلغ أعظم الدرجات وأشرف المراتب ، كما يدعو له بأن يعرف حق هذه النعمة ويشكر الله عليها أصدق الشكر ، ويتمنى له أن يبلغ غاية آماله . وكأنما الرسالة ضرب من الحيل العقلية التي كانت تدور في المجالس ، والتي كانت تعرض محاسن الشيء ومساوئه . فقد يكون حسناً وينقلب سيئاً ، وقد يكون سيئاً وينقلب حسناً ، ولا يرى فيه إلا الحسن ، بفضل الذخائر العقلية التي حازها لنفسه العصر العباسي . وله من رسالة تعزية (١) :

« إذا استوى المعزى والمعزى في النائبة استغنى عن الإكثار في الوصف لموقع الرزية ... وأنا أقول إنا لله وإنا إليه راجعون ، إقراراً له بالهلكة ، واعترافاً بالمرجع إليه ، وتسليماً لقضائه ، ورضاً بمواضع أقداره ، وأسأل الله أن يُصَلِّيَ على محمد صلاة متصلة بركاتها ، وأن يُوفِّقك لما يُرضيه عنك قولاً وفعلاً ، حتى يُكْمَلَ لك ثواب الصابر المحتسب وجزاء المطيع المنتجز للوعد ، ويرحم فلاناً ويُحِلِّه أعلى منازل أوليائه الذين رضى سعيهم ، وتطول بفضله عليهم ، إنه وليُّ قدير » .

والحيلة أيضاً في هذه الرسالة واضحة ، فقد جعل وفاة الشخص شركة بينه وبين المعزى ، فهو أيضاً حري بأن يُعزَّى فيه ، وكأن المصيبة فيه مصيبة عامة ، والحزن عليه لا يقف عند من أرسل له هذه الرسالة ، بل يشمل كثيرين هو أحدهم . وقد أخذ يَحْتال على أن يَسَلُّوْهُ عنه صاحبه ، تسليمًا للقضاء ، واعترافاً بأن كل من عليها فان ، ورضاً بالمقادير ، وإنه ليدعو الله أن يوفق صاحبه للصبر على المصيبة ، حتى يحوز ثواب المحتسب الصابر ، ويدعو للمتوفى أن يرحمه الله وينزله مع أوليائه وأصفيائه في الدرجات العلية . وله بهنئٍ بعض إخوانه بولاية (٢) :

« أنا أهنيُّ بك العمل الذي وكيته ، ولا أهنتك به ، لأن الله أصاره إلى من يورده موارد الصواب ، ويُصَلِّدُه مصادر الحجة ويصونه من كل خلل وتقصير ، ويمضيه بالرأى الأصيل ، والمعرفة الكاملة . فَرَنَّ الله لك كل نعمة بشكرها ،

(٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٨٩ .

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٢ .

وأوجب لك بطوّله المزيد منها، وأوزَعَكَ (أهملك) من المعرفة بها ما يصونها من الفتن ويحوطها من النقص .

والرسالة مع إيجازها تبدأ بحيلة من حيل الفكر العباسي الحصب الحافل بما يلفت السامع ويروعه ، وهي أن العمل هو الذي يهنأ بهذا الوالى ، لا أن الوالى هو الذى يهنأ به ، إمعاناً فى المدح والإطراء ، فقد كان من حسن حظ هذا العمل أن صار بيد من يدبره على خير وجه ممكن فى الإيراد والإصدار ، ومن يصونه ويحفظه من أى خلل أو تقصير ، مع الفكر الحصيف والمعرفة التامة . ويدعوله بالأمن فى عمله والسلامة من الفتن والثورات ، وهو خطاب مقتضب ، ولكنه جامع شامل ، مع اللفظ المتنى والأسلوب المصفى . وله من رسالة فى ذم بعض الأشخاص وهجائه<sup>(١)</sup> :  
 « رجلٌ يَعْتَفُ بِالنِّعَمِ عَشْفَ مَنْ قَدْ سَاعَتْهُ بِمَجَاوِرَتِهَا ، وَيَسْتَخْفُ بِحَقِّهَا اسْتِخْفَافًا مَنْ لَا يَخْفُ عَلَيْهِ مَحْمَلُهَا ، وَيَقْصُرُ فِي الشُّكْرِ تَقْصِيرًا مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّ الشُّكْرَ يَرْتَبُهَا . . فكيف يتسع الصدر للصبر عليه ؟ إن الله لا يخاف القوات فهو يُسْمَهُ ، وإنه إن مات لم يخرج من سلطان الله جَلَّ وَعَزَّ إِلَى سلطان غيره فيعاجله . »

وهذه الكلمات على قصرها من أذع الهجاء ، وهل هناك شخص تسوؤه النعم سوى هذا الشخص الذى لا يعرف قدرها ، بل إنه يعنف بها عنف عدو غاشم ، وإنه ليستخف بحقوقها استخفافاً مَنْ ثَقُلَ عَلَيْهِ التَّهْوِضُ بِهَا وَحَمَلُهَا ، وَهُوَ لِذَلِكَ كُلِّهِ يَطَّرِحُ الشُّكْرَ عَلَيْهَا اطْرَاحَ الْجَاهِلِ بِأَنَّ الشُّكْرَ هُوَ الَّذِي يَكْفُلُ لَهَا الْبَقَاءَ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّهُ مَعَ طَغْيَانِهِ وَبَغْيِهِ عَلَى نِعْمَةِ رَبِّهِ سَيْلَى جَزَاءَهُ ، إِنَّهُ يُسْمَهُ ، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ لَنْ يَخْرُجَ حِينَ يَمُوتُ عَنْ دَائِرَةِ سُلْطَانِهِ . وَالْكَلِمَاتُ وَالْعِبَارَاتُ مَخْتَارَةٌ بِدَقَّةٍ . وَهُوَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى يَوْمِ أَنْسٍ مِنْ رِسَالَةٍ<sup>(٢)</sup> :

« لَا عُدْرَ فِي التَّخْلُفِ عَنْكَ ، وَإِنْ حَالَ الْاِسْتِغْثَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، فَإِنْ كُنْتَ سَأَمْتَ عَلَى الْعُدْرِ قَبْلَ الْاِعْتِذَارِ ، وَسَبَقْتَ إِلَى فَضِيلَةِ الْاِعْتِفَارِ ، فَلَا زِلْتَ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ دَلِيلًا ، وَإِلَيْهِ دَاعِيًا ، وَبِهِ أَمْرًا ، وَقَدْ التَّقِينَا قَبْلَ وَصُولِ كِتَابِكَ لِقَاءَ أَحَدَثٍ قَطَّرْنَا (دموعاً منهجرة) وَهَاجَ شَوْقًا ، وَأَرْجُو أَنْ تَسْعَ لَنَا الْجُمُعَةَ بِمَا بَخَلْتَ بِهِ الْأَيَّامَ ، فَتَنَالَ حِظًّا مِنْ مَحَادِثِكَ وَالْأَنْسِ بِكَ . »

(١) صبح الأعشى للقلشندى ٢١٩ / ٩ . (٢) زهر الآداب ٣ / ٣٦١ .

وهو يعترف بأنه مقصر وخليق بالاعتذار لتخلفه عن زيارة صديقه ، ويعتذر بكثرة أعماله ، ويتلطف معه ، فيجعله قَبِيلَ عذره قبل تقديمه وغفر له تقصيره . وانظر كيف عبّر عن مدى تأثرهما عند اللقاء بقوله إنه لقاء أحدث قَطْرًا . ودائمًا لاتفوته الكلمة الموجزة المعبرة أدق تعبير وأقواه . ومن رسالاته عن فضل محبوبته وقد ظن بها الظنون وأنها تعشّرت في حبال غيره<sup>(١)</sup> :

« أصبحتُ - والله - من أمر فضل في غرور ، أخادع نفسي بتكذيب العيان ، وأمنيتها ما قد حيل دونه . والله إن إرسالي إليها - بعد ما قد لاح من تغييرها - لذلٌّ ، وإن عدلى عنها - وفي أمرها شُبُهَةٌ - لعجز ، وإن تصبّرى عنها لمن دواعي التلف » .

والقطعة محبوبكة العبارات ، وقد عمد فيها إلى بيان حالته النفسية إزاء تغيير فضل عليه ، متصوراً ثلاثة مواقف ، فهو إن راسلها كان ذلك ذلًّا له وهوانًا ما بعده هوان ، وهو إن انصرف عنها ولا يزال مشتبهًا في أمرها لم يتبين بالضبط قطيعتها له كان ذلك عجزاً منه وتقصيراً ، وهو إن أخذ نفسه بالصبر عنها كان ذلك فوق طاقته وأدّى به إلى التلف والهلاك . ودائمًا نحسُّ عنده دقة التعبير ، وكأن الكلمات سهام تصيب مرماها . وله فصول بديعة تدور في كتب الأدب من مثل قوله في رسالة لصديق مصوراً مودته<sup>(٢)</sup> :

« إنى أهديت مودتي إليك رغبةً ، ورضيت بالقبول منك مثوبةً ، فصرت بقبولها قاضياً لحق ، ومالكاً لرق ، وصرتُ - بالتسرع إلى الهدية والتخير للمثوبة - مرْتَهَنَ اللسان بالرضا ، واليدين بالوفا » .

وانظر تصويره لمودته بأنها هدية أهداها لصاحبه ، ودائمًا تُردُّ الهدايا ، وهو لا يريد لها رداً ولا جزاءً سوى قبول الصديق لها ، ويقول إنك إن قبلتها أصبحت ناهضاً بحق ومالكاً لعبد ، جعل رِقَّةً في يديك وحريره طوع مشيتك ، وكل ذلك كناية عن مدى إخلاصه في أخوته وصداقته . وهو يصور نفسه ، وقد قدّم الهدية وتخير جزاءها مودة صديقه بل قبوله لها ، قد أصبح لسانه مرتهنًا بحرمته ويده مقيدين بالوفاء لها ونفسه مستعبدة له . ولا تُعرّف بالضبط السنة التي توفي فيها سعيد ، وأكبر

(١) الأغاني (طبعة الساسي) ١١٩ / ٢١ . (٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٧ .

الظن أنه عاش إلى أواسط عصر المعتمد (٢٥٦-٢٧٨ هـ) . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور مهارته البيانية في الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد كان يُعنى أشد العناية باختيار ألفاظه وتقطيع عباراته حتى لينتهي التقطيع أحياناً إلى السجع ، كما كان يُعنى بمعانيه وجسب ما يروق منها بدقته وطرافته .

٥

### أبو العباس بن ثوبة (١)

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوبة المتوفى عام ٢٧٧ للهجرة ، وهو من أسرة أصلها مسيحي ، عملت في دواوين الخلافة ، منذ أواسط القرن الثالث للهجرة إلى منتصف القرن الرابع . وأول من لمع اسمه منهم محمد بن ثوبة وكان يعمل في دواوين الدولة ، وهو من ممدوحى البحتري ، وكان ابنه جعفر يتولّى ديوان الرسائل في أيام عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير بأخرة من عصر المعتمد ، وقد توفى سنة ٢٨٤ للهجرة ، وخلفه على رئاسة هذا الديوان ابنه أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوبة ، وسبق أن عرضنا له في الفصل الماضى وقلنا إنه كان يسجع في رسائله الديوانية ، وقد توفى سنة ٣١٢ فخلفه على رئاسة الديوان ابنه أحمد حتى سنة ٣٤٩ للهجرة . ويبدو أن السجع نما على أيدي هذه الأسرة وكانت عاملاً من عوامل انتشاره في الكتابتين الديوانية والإخوانية .

وليست بين أيدينا معلومات واضحة عن نشأة أبي العباس بن ثوبة ، ولكن لا بد أن أباه وكان يشغل في الدواوين أخذه مبكراً بالدرس والتحصيل ، بادئاً معه من الكتاب ، ومنتهيّاً به إلى حلقات العلماء في المساجد ، حتى إذا غزرت ثقافته تحول به إلى الدواوين الرسمية ونراه متألقاً فيها منذ عصر المهتدى (٢٥٥-٢٥٦ هـ) ، وما زال نجمه في صعود حتى اختير لرئاسة ديوان الرسائل لأوائل عصر المعتمد . وكانت لاتُعقدُ إلا لمن أثبت كفاءته وعُرفت بلاغته . وكان طبيعياً أن تكثر الصلات والمودات بينه وبين سعيد

رسائل العرب ٣٢٢/٤ وما بعدها .  
(٢) الأغاني (طبعة السامى) ٦٩/٢٠ .

(١) انظر في أبي العباس بن ثوبة الفهرست ص ١٩٣ وبعيم الأدباء ١٤٤/٤ وجمهرة

ابن حميد وغيره من كتّاب عصره وشعرائه، ولا بن الرومي فيه مدائح مختلفة ، وكذلك للبحري ويُرْوَى له توقيع وقّع به في قصيدة له ، استمنحه فيها قضاء حاجة على هذا النحو : « مقضية ولو أتلقت المال ، وأذهبت الحال ، فقل - رعاك الله - ما شئت منبسطاً ، وثيق بما أنا عليه لك مغتبطاً ، إن شاء الله تعالى » . ويبدو أنه ظلّ على ديوان الرسائل حتى تولى إسماعيل بن بلبل الوزارة للمعتمد سنة ٢٦٥ ، وكانت بينهما وحشة شديدة . ودخل عليه أبو العباس ووقف بين يديه ، ثم قال أيها الوزير : ( لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ) ، فقال له ابن بلبل : ( لا تريب عليك ) يا أبا العباس ، ورفع مجلسه ، غير أنه صرفه عن الديوان وولاه نواحي بابل وسواد بغداد الغربي ، فضاعف - وزاد - في الدعاء له ، ويقال إنه ظل على تلك النواحي حتى وفاته .

وأبو العباس أحد كتّاب العصر وبلغائه ، وفي أخباره أنه كان شديد العناية بأناقته وبكل ما يتصل بحياته شديد التكلف ، ويضرب الرواة لذلك مثلاً بعبارات له شديدة الغرابة ، وأنه قال يوماً وقد استمع إلى حاجم : علىّ بماء الورد أغسّل في من كلام الحاجم . وأثّر له عهد طويل إلى أحد الولاة من الموفق ولي عهد المعتمد ، ومرّبنا أنه كان الخليفة الحقيقي طوال عصر أخيه ، ولذلك كانت العهود إلى الولاة تصدر عنه ، والعهد يبتدئ على هذا النمط <sup>(١)</sup> :

« هذا ما عهد به أبو أحمد الموفق بالله وليّ عهد المسلمين إلى فلان حين ولاه الصلاة بأهل كورة الرّيّ ودُنباوند ونواحيها ، والحرب والأحداث فيهما . أمره بتقوى الله وطاعته ، وخشيته ومراقبته ، في سرّهِ وعلانيته ، وظاهر أمره وباطنه والعمل بما أمر الله به ، والانتها عما نهى عنه فيما وافقه وخالفه ، وأرضاه وأسخطه فإنه من يتق الله يتق الله بيقه ، ومن يعتصم به يهنده ، ومن يطعنه يتولاه ويكفنه (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . وأمره أن يملأ قلبه خيفة الله وهيبته والتفويض إليه ، والاعتماد عليه ، وأن يجعل كتاب الله عزّ وجلّ له إماماً ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مثلاً ، فإن فيهما دلالةً وتبييناً ، وضياءً ونوراً وشفاءً لما في الصدور وهُدًى ورحمةً للمؤمنين . وأمره أن يكون أولُ

ما يُعنى به ويقدمه، ويراعيه ويؤثره، إقامة الصلاة لمواقيتها بإتمام ركوعها وسجودها وأداء فَرَضِ الله فيها، إذ كانت عماد الدين، وأفضل ما تقرَّب به المؤمنون، وكان مَنْ أضعافها وقصَّر في واجبها، أشدَّ تضييعاً لما سواها من حقوق الله عزَّ وجلَّ وفرائضه ودينه وشرائعه (ولإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين). وأمره أن يُلهم نفسه في كل حال من حالاته وصغير وكبير من أمره، ذكرَ الله جل ثناؤه، وألا يُمنَىَ أمراً إلا بعد استخارة الله عزَّ وجلَّ فيه، واستقصائه في ذلك بالذى هو له أَرْضَى، وعنده أَرْكَى، فإن العاقبة للتقوى، وإن أفضل الأمور خَيْرُهَا عاقبةً، وأحمدُهَا مَغْشِيَةٌ، وما التوفيق إلا بالله، عليه يتوكل المتوكلون.»

وقد استهلَّ أبو العباس بن ثوابة العهد — كما يلاحظ القارىء — بالسجع، ثم رآه سيطول إذ يمتد نحو ثمانى صفحات، فانصرف عنه مكتفياً بتقطيع العبارات وباصطفائها واصطفاء الألفاظ التى تتألف منها. وقد حاول أن يُنهي كل أمر بآية أو كلمة من القرآن تناسبه. وهو يُمضى فى العهد، فيأمر الوالى بحسن سياسته لأهل عمله وأخذهم لهم بالعدل والنصفة وإحقاق الحقوق، وأن يتخذ مساعديه فى إدارة الحكم من أهل العفاف والكفاية، وأن يقدم أهل الفضل والصلاح والمشايخين للدولة ويتخذ منهم مستشاريه، وأن يقيم الحدود متبعمًا لما جاء فى محكم التنزيل والسنة النبوية وما نصَّ عليه الفقهاء، وأن يجعل دَبْرَ أذنه ما قد يكون بينه وبين بعض الرعية من حقد وضغينة، وأن يجمع أهل الدعارة والفساد بإقامة الحدود عليهم دون إفراط، فإن لكل شىء قدرًا، وأن يصرف عنايته إلى أطراف ولايته، وخاصة التى تقابل الأعداء فيسدَّ خللها ويرتق فتقها، ويعاجل أى متسرع للفتنة أو الثورة بها. ويطلب إليه أن يراقب التجار ولا يدعهم ينقلون زاداً ولا عتاداً من الأسلحة إلى ديار العدو، وينزل العقاب بمن يخالف منهم هذا الأمر، وهو يدل على يقظة الدولة. ويأمره أن يحسن التعاون مع صاحب الخراج وأن يقدم له ما يريد من المساعدين، حتى يسدَّ الخراج ويكثر حِلابه، كما يأمره أن يتفقد مَنْ فى السجون، ويكثر عَرْضَهُم والنظر فى أمورهم والأسباب التى حُبسوا بها، آخذاً بمشاورة أهل الفقه فيهم. ومن أطرف ما فى العهد أن نراه يأمر الوالى بالأمانة فى

ولايته ، وألا يأخذ أى ضرائب استثنائية من الرعية ، لا بحجة الضيافة ولا بأى حجة أخرى . ومرّ بنا فى الفصل الأول كيف أن الولاة تحولوا لصوصاً وقطّاع طرق يخلسون الأموال من الناس . إن أى رحمة أو شفقة ، وكأن أبا العباس بن ثوبة يشير إلى ذلك على لسان الموفق إذ يقول للوالى إنه :

« أمره ألا يتقسم على أهل عمله قسمةً بسبب نزل (ضيافة) ولا غيره ، كما كان شرار العمال يُوظّفونه ويقسمونه على أهل أعمالهم ، ويتجنب الطعم (وجوه المكاسب) الشائنة ، والمكاسب الرديئة . ويحذر أن يعرض لشيء منها ، أو يطلقه لأحد من كفّاته (معاونيه) فيردّ عليه من النكير ما هو حرى بتوقيه والتصون عنه » . ويعرض فى العهد لوظيفة الحسبة . وكان المحتسب يراقب الأسعار فى الأسواق ، ويقوم فيها مقام رجل الشرطة والقاضى معاً ولذلك كان يُختار من رجال الفقه والشرعة . فهو يحقق ويحكم ويدين ويردّ عن المظلوم الظلم ، ويراجع المكاييل والموازين ، ويعاقب الغاشّ المخادع ، وفى ذلك يقول عن لسان الموفق لواليه :

« وأمره أن ينخير للحسبة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبياعات (السلع) فى عمله من يعرّف بالقصد فى مذهبه ، والستّر فى نفسه ، والعفاف فى طعمته (وجه مكسبه) واستيفاء الحق فيما يقلّده ويستكفى القيام به ، ويتقدّم إليه فى أخذ كل طبقة من أهل الطبقات التى يقع عمله فى الحسبة فيها بتصحيح المعاملة ورفع الغشّ ، وتجنب كل ما عاد بمضرة على المسلمين أو تحيّف (تنقص) لهم ، وتعبير (قياس) المكاييل والموازين فى سائر عمله ، وإقامتها على الوفاء والعدل ، وختّمها بالرصاص ، وحسّل المتاعين فيها وغيرهم عليها ، والإشراف على ما يرسمه ، ويتقدم بامثاله فى سائر جهه الحسبة ، حتى لا يخالف شيئاً منه إلى غيره ، ومعاقبة من عسى أن يردّعه ، ويعظ من سواه ، فإن الله عزّ وجلّ  
ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم  
ولا تعشوا فى الأرض مفلسين ) » .

وهى قطعة طريفة فى العهد ، إذ تصور أعمال رجال :

يُسْتَرَطُّ فِيهِمْ مِنْ مَعْرِفَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَحُدُودِهَا وَأَنْ يَكُونُوا مِنَ التَّقَاةِ أَهْلَ السُّتْرِ وَالْعَفَافِ حَتَّى لَا يَتَحَوَّلُوا إِلَى ذُنَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ فَارْضِينَ عَلَى التَّجَارِ وَأَصْحَابِ الصَّنَاعَاتِ هَدَايَا وَرِشَاوَى ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَفْسُدَ الذِّمُّ فَسَادًا لَا حَدَّ لَهُ ، وَبِالنَّاتِلِ تَفْسُدُ الْأَسْعَارُ وَالْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ . وَيَصَوِّرُ مَهْمَةَ الْمُحْتَسِبِ بِأَنَّهَا تَصْحِيحُ الْمَعَامَلَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَرَفْعُ الْغِشِّ وَالْحِدَاعِ وَالْمَرَاجَعَةُ الدَّائِمَةُ لِعِيَارِ الْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ وَخَتْمُ الدَّقِيقِ مِنْهَا خَتْمًا يَدُلُّ عَلَى صِلَاحِهِ ، بِحَيْثُ لَا يَسْتَعْمَلُ سِوَى الْمَوَازِينِ وَالْمَكَايِيلِ الْمُخْتَوِمةِ الَّتِي أَقْرَبَهَا الْمُحْتَسِبُ ، وَكُلٌّ مِنْ حَدِيثِهِ نَفْسُهُ بِمُخَالَفَةِ ذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُنْزَلَ بِهِ الْمُحْتَسِبُ عِقَابًا رَادِعًا . وَقَدْ كُتِبَ الْعَهْدُ بِدُونِ سَجْعٍ ، وَكَانَ ابْنُ ثَوَابَةَ يَفْزَعُ إِلَى السَّجْعِ كَثِيرًا ، وَلَعَلَّهُ لَاحِظٌ أَنَّهُ مُوجِّهٌ لِلرَّعِيَةِ كَمَا جَاءَ فِي نَهَائِيتهِ ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فِي لُغَةٍ وَاضِحَةٍ لَا يَحْتَجِبُ السَّجْعُ بَعْضَ مَعَانِيهَا ، وَلَا يَحُولُ بَيْنَ الْعَوَامِ وَتَبَيَّنَ مَا فِيهَا .

وَأَثَرَتْ لَهُ رِسَائِلُ إِخْوَانِيَّةِ كُتِبَ بِبَعْضِهَا إِلَى نَفَرٍ مِنَ الْوُزَرَاءِ ، وَهُوَ فِيهَا تَارَةً يُكْتَرُ مِنَ السَّجْعِ وَتَارَةً يَتَخَفَّفُ مِنْهُ بَلْ قَدْ يُهْمَلُهُ تَمَامًا عَلَى نَحْوِ مَا نَجَدُ فِي الرِّسَالَةِ التَّالِيَةِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا إِلَى الْوَزِيرِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ بُلْبُلٍ يَهْنَثُهُ بِمَصَاهِرَةِ الْمَوْفِقِ وَلِيَّ عَهْدِ الْمُعْتَمَدِ وَفِيهَا يَقُولُ (١) :

« بَلَّغْنِي لِلْوَزِيرِ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - نِعْمَةً زَادَ شُكْرُهَا عَلَى مَقَادِيرِ الشُّكْرِ ، كَمَا أَرَبَيْتَ مَقْدَارُهَا عَلَى مَقَادِيرِ النِّعْمَةِ ، فَكَانَ مَثَلُهَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ الصَّوَلِيِّ :

بِنُوكِ - غَدَاً - آلُ النَّبِيِّ وَوَارِثُوهُ الْخِلَافَةُ وَالْحَاوُونَ كِسْرَى وَهَاشِمَا

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهَا مُوهَبَةً تَرْتَبِطُ مَا قَبْلَهَا ، وَتَنْتَظِمُ مَا بَعْدَهَا ، وَتَصِلُ جَلَالَ الشَّرْفِ ، حَتَّى يَكُونَ الْوَزِيرُ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - عَلَى سَادَةِ الْوُزَرَاءِ مُوَفِّيًا ، وَبِجَمِيلِ الْعَادَةِ مُسْتَحَقًّا ، وَلِحَمْدِ الْعَاقِبَةِ مُسْتَوْجِبًا ، وَأَنْ يُلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ هَذِهِ الْحُلُلِ الْغَالِيَةِ مَا يَكُونُ لَهُمْ ذِكْرًا بَاقِيًا وَشَرَفًا مُخْلَدًا » .

وَالرِّسَالَةُ تَخْلُو مِنَ السَّجْعِ ، وَلَكِنَّهَا تَحْوِي الْكَثِيرَ مِنَ الْمَهَارَةِ الْفَنِيَّةِ ، وَخَاصَّةً فِي تَقْطِيعِ الْجَمَلِ وَتَقَابُلِهَا وَاسْتِيفَاءِ مَعَانِيهَا ، عَلَى نَحْوِ مَا يَنْضَحُ فِي الْعِبَارَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ

منها ، واقتبس فيها بيتاً لإبراهيم بن العباس الصولى شديد الصلّة بما تريد الرسالة أن تؤدّيه من معان . ويُعقّبه عبارات مقطّعة متقابلة ، وكأنّما الكلمات تتشابه بالأيدى ، فقد كان يعرف كيف يضمّ اللفق إلى اللفق والنظير إلى النظير ، بحيث تماسك الكلمات وكأنّها فى بناء متراص . وأشرفنا فى الفصل السابق إلى إنكار إبراهيم بن المدبر فى رسالته العذراء التى وجّه بها إلى الكتّاب أن يقولوا فى رسائلهم : « جُعِلْتُ فداك » وإنّما أنكر العبارة لاشتراك معناها كما يقول واحتمالها أن تكون فداء من الخير أو فداء من الشر ، ويقول إن كتّاب العسكر ( الجيش ) وعوامهم أوعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاوراتهم وجعلوها دأبهم فى مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . وكأنّما صدر أبو العباس بن ثوبة عن روح هذا النقد ، إذ كتب إلى الوزير عبيد الله بن سليمان رسالة خالية من قولهم : « جُعِلْتُ فداك » فعاتبه عبيد الله ، ولم يكده يسمع عتابه ، حتى كتب إليه برسالة ثانية ، يصور فيها نقد إبراهيم بن المدبر السالف ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« الله يعلم — وكفى به عليمًا — لقد أردت مكاتبتك بالتفندية ، فرأيت عيبًا أن أفنديك بنفس لا بد لها من الفناء ، ولا سبيل لها إلى البقاء ، ومن أظهر لك شيئًا يُضمر خلافه فقد غشّ ، والأمر إذا كانت الضرورة توجبه ، وتحقق أنه ملك لا يتحقق ، وعطاء لا يتحصّل ، لم يجز أن يخاطب به مثلك ، وإن كان عند قوم نهاية من نهايات التعظيم ، ودليلا من دلالات الاجتهاد ، وطريقًا من طرق التقرب » .

وقد التمس أبو العباس بن ثوبة لإنكار التفندية علة أخرى غير علة ابن المدبر ، لعلها أكثر منها تعبيراً عما أصاب الذوق الأدبى فى العصر من رقة بالغة عند بعض الكتّاب ، حتى لتؤذيه الكتابة بالتفندية بنفس فانية غير باقية ، وهو إفراط فى الحسن والشعور والرقة والدماثة . وبذلك نفهم عبارة أبى العباس السابقة حين استمع إلى كلام حاجم ، فقال : علىّ بماء الورد أغسل فى من كلام الحاجم ، وكان سماع الكلام الذى لا يعجبه لا يؤذى أذنه فحسب ، بل يؤذى فمه ، وإنه لإيذاء غريب ، ولكن لا غرابة أن يصدر من أبى العباس ، فقد كان يتكلف

(١) زهر الآداب ١٦ / ٣ وجمهرة رسائل

العرب ٤ / ٣٣٢ .

الدمائة والحسن المفرط والشعور الحاد . وله من فصّل في رسالة كتب بها إلى نفس الوزير عبيد الله بن سليمان ، يقول فيه <sup>(١)</sup> :

« لم يؤت الوزير من عدم فضيلة ، ولم أوت من عدم وسيلة ، وغلّة ( حرارة ) الصّادى ( العطشان ) تأبى له انتظار الوارد ، وتُعجّل عن تأمل ما بين الغدير والوادي ، ولم أزل أترقب أن يُخطرنى بباله ، ترقب الصائم لظفره ، وأنتظره انتظار السارى لفجره ، إلى أن برح ( انكشف ) الخفاء وكُشف الغطاء ، وشمّت الأعداء ، وإن في تخلفي وتقدّم المقصرين لآية للمتوسمين ، والحمد لله رب العالمين » .

والفصلُ مكتوبٌ بكل دقة ، فالوزير لم ينسه نقصاً فيه إذ اكتملت فضائله وأوفت على الغاية ، وهو لم يؤت من نقص ، فبلاغته ذائعة معروفة يعرفها القصى والدانى ، وإذن فليبحث عن علة ، ويقول إن الحرارة المشتعلة في صدر العطشان تدفعه إلى عدم الانتظار لما قد يرد عليه ، وتُعجّله عن النظر فيما بين الغدير والوادي من خيرات ومياه وطيبات . ويمضى فيقول إنه كان يترقب إقباله ترقب الصائم الجائع لظفره والسارى بالليل الداجي لفجره ، غير أن أضواء الصباح العابس تفكّمت من الأفق ، فاتضح الخفاء وانكشف الغطاء وأن الوزير لن يشمله برعايته ، وشمّت الأعداء . وكأنما يعاتب عبيد الله بكل ذلك عتاباً رقيقاً وهو يختمه بقوله إنه أصبح في عداد المتخلفين ، بينما تقدّمت في رحاب الوزير كثرة من المقصرين الذين لا يبلغون شأوه ، ويقول إن في ذلك لآية للناظرين ، ولا ينسى حمد الله رب العالمين الذي لا يُحمّدُ في مكروهه سواه . والعبارات في الفصل متسقة اتساقاً وثيقاً ، إذ لاعم أبو العباس بينها بقسطاس دقيق ، ونحسُّ انسجاماً بين الكلمات منذ العبارتين الأوليين ، وهو انسجام انتهى بهما إلى أن تصبحا سجعيتين . ويضيف إلى ذلك في العبارتين التاليتين مادة تصويرية طريفة ، حتى إذا سَوَّاهما تلاهما بعبارات يلتحم فيها السجع والتصوير معاً . وبذلك يسبّغ أبو العباس بن ثوبان صاحب الدمامة المفرطة والرقّة المتناهية كل ما كان ينتظر له من تألق في التعبير الأدبي ، إذ يتحول عنده إلى زخرف خالص ، زخرف يحمل كل ما يريد من وشى السجع ووشى الصور النادرة . وله من جواب عن تعزية <sup>(٢)</sup> :

(٢) جمهرة رسائل العرب ص ٣٣٣ .

(١) معجم الأدباء ١٤٧/٤ .

« وصل كتابك بالتعزية عن أخي ، وقد جعلت مصيبتى به وعظمت ، فنكات ( جرحت ) القلب ، وهدت الركن ، وأذهبت القوة ، ونغصت العيش ، وأزرت بالأمل . فعند الله أحسنه ، وإياه أسأل تفضلا عليه ، وصفحا عنه ، وتغمداً ( غفراناً ) لذنوبه ، وصبراً على حادث قضائه فيه ، واستعداداً للموت وتأهباً له ، فإنه متصرع لا بد منه ، ومورد لا مَحِيصَ عنه . »

والانسجام واضح بين الكلمات والعبارات ، فقد صور حزنه على أخيه بجمل متناسقة ، ولا شك في أنه بذل جهداً عنيفاً في اجتلابها ووضعها متلاحقة ، وكل جملة تضيف خطاً إلى لوحة الحزن السوداء ، فعبارة تحمل جرح القلب ، وثانية تحمل انهداد الركن ، وثالثة تحمل ذهاب القوة ، ورابعة تحمل تنغص العيش ، وخامسة تحمل الإزراء بالأمل . ويتجه إلى الله بجمل مماثلة يدعو فيها لأخيه ولنفسه أما أخوه فيدعو له بالتفضل عليه والصفح عنه ، والغفران لذنوبه ، ثلاث دعوات ويقابلها لنفسه ثلاث أيضاً : الصبر على حادث القضاء ، والاستعداد للموت بالعمل الصالح ، والتأهب له . وهكذا كل عبارة وكل كلمة كأنما توضع بميزان دقيق يزنها في عبارتها ، ويزن عبارتها بالقياس إلى قرينتها أو قرائنها . ويذكر صاحب معجم الأدباء أن البحترى هجا بنى ثوبة في قصيدة له فبعث إليه أبو العباس يترضاه بهدية نفيسة فردّها وقال لحاملها قل لأبي العباس : قد أسلفنكم إساءة فلا يجوز معها قبول صلحتكم ، فكتب إليه :

« أما الإساءة فمغفورة ، والمعذرة مشكورة ، والحسنة يُذهبن السيئات ، وما يأسو ( يداوى ) جراحك مثل يدك ، وقد رددت إليك ما رددته عليّ ، وأضعفت ، فإن تلافيت ما فرط منك أثبتنا وشكرنا ، وإن لم تفعل احتسبنا وصبرنا . »

فتقبل البحترى ما بعث به ووعد أبا العباس أن يأتيه ثناؤه ومديحه . والكلمات التي كتب بها إلى البحترى تحمل نفس خصائصه من وزن الكلام بقسطاس ، وجعله القسطاس هذه المرة يلائم أشد الملاءمة بين العبارات ، فإذا هي تأخذ صورة سجع خالص ، وهو سجع حافل بالعدوبة . ولا نبالغ إذا قلنا إن أبا العباس كان أحد من أعد وبقوة في القرن الثالث الهجري لشيوخ السجع وانتشاره .

## خاتمة

هذا الجزء خاص\* بتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، وقد بدأت به بالحديث عن الحياة السياسية وما حدث فيها من تحول خطير ؛ إذ غرب نجم الفرس ولم يعد لهم شيء من السلطان والنفوذ ، فقد أصبح النفوذ كله والسلطان كله بيد الجند الأتراك وقوادهم ، وكانوا بلواً رُحلاً ، لا علم لهم بصناعة ولا بزراعة ولا بتجارة ، ولا بفنون ولا بأداب ، ولا بنظم ملك وسياسة ، وكانوا قد قبضوا على زمام الحكم في أواخر العصر السابق ، وظلوا مسيطرين عليه طوال هذا العصر . وعيشاً حاول الموثكل التخلص منهم ، ولكنهم ظفروا به وقتلوه ، ولوا مكانه المنتصر ، ومضوا يولّون ويعزلون ويقتلون في الخلفاء ، وزادوا عنفهم بهم بأخرة من العصر ، فكانوا يسملون أعينهم . وطبيعي أن تتدهور الخلافة ، وزاد في تدهورها انغماس الخلفاء في اللهو والترف واشتداد سفههم ، إذ مضوا يبنون القصور بالأموال الطائلة ، غير مفكرين في خزائن الدولة ولا فيما ينبغي أن تُنصَقَ فيه الضرائب من مرافق الشعب ومصالحه وإعداد الجيوش بالعتاد المادي والحربي . وفسد الحكم فساداً لا حد له فقد تحول الوزراء إلى لصوص ينهبون أموال الدولة ، وتتخذ منهم الملايين ويصادرون ولا رادع ولا زاجر ، والشعب يقاسى كل صنوف البؤس والشقاء . وتشبّ ثورة الزنج في البصرة وتظل أربعة عشر عاماً ، وتشبّ ثورات القرامطة وتظل سنوات متطاوة ويُقضى عليها في العراق والشام ، ولكن تظل منها شعبة في البحرين ، تهدّد الدولة وتكلفها كثيراً من الأموال والرجال حتى نهاية العصر . وتكاثرت الأحداث ، وكان من أهمها إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ووقف القول بخلق القرآن وامتحان الفقهاء فيه . وكانت الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين لا تزال ذاهبة آبية ، وتكاثرت ثورات العلويين في الكوفة وطبرستان ، وثار الصفاريون في سجستان وكرمان وفارس ، واستسلموا آخر الأمر . ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، وكأن ذلك كان إيذاناً بانتهاء هذا العصر وانتهاء

الحكم التركي معه ، إذ استولى بنو بويه الفرس على بغداد ، وصار لهم السلطان فيها والصولجان .

وكان المجتمع العباسي يتألف من ثلاث طبقات : طبقة تنعم بكل أسباب الترف والنعيم ، وهي طبقة الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار موظفي الدولة وأصحاب الإقطاعات ورعوس التجار . وطبقة وسطى ، معيشتها بين الترف والشطف وهي طبقة رجال الجيش وصغار الموظفين ومتوسطى الدخل من التجار والصناع . وطبقة دنيا ، معيشتها بؤس وضنك وإعسار ، وهي الطبقة العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والرقيق . ومن يطلع على ما كان يُسْفَقُ حينئذ في قصور الخلفاء والوزراء يُخَيَّلُ إليه أنه يقرأ في أقاصيص ألف ليلة وليلة ، إذ يبلغ ما كان يُسْفَقُ على المطابخ أحياناً ثلاثين ألف دينار شهرياً ، أما القصر فكان يبلغ ما ينفق عليه أحياناً مليونين ونصفاً ، والقصور الباذخة تشيّد ، والشعب يكدح ويتصبّب من جيبنه العرق ليصبح ما يملكه وزير أكثر من عشرة ملايين دينار ، ولكل وزير حرسه الذي يزيد عن المئات على حين يزيد حرس الخليفة عن الآلاف . وكان كثير من أهل الطبقة الوسطى تسيل إليهم من هذا الترف وأمواله سيول ، وخاصة الأطباء والمغنين والمترجمين والشعراء ، أما الطبقة الدنيا فكانت مع بؤسها تُبْتَنَزُّ منها الأموال بكل الطرق ، واضطراً كثيراً منها إلى أن يصبحووا قسراً دين وحوادثين ومتسولين بطرق شتى . وكان أهل الذمة يعاملون معاملة سمحة ، وكان كثير من النصارى يعملون في البيمارستانات أطباء وفي الدواوين كتّاباً . وكان قصر الخلافة كثيراً ما يتحول إلى مقصف كبير للهو والغناء ، ولم يتوقف فيه البذخ والترف طوال العصر . وكان الرجال والنساء جميعاً يبالغون في الأناقة : الأناقة في الملابس وكل ما يتصل به من طيب وعطر . وتفننوا في المطاعم إلى غير حد كما تفننوا في الحلواء وفي الشراب . وعنوا بالسمر والمنادمة وضروب كثيرة من الملاهي . وكان الرقيق— وخاصة رقيق الجوارى— يملأ الدور والقصور ، وكانت النخاسة قائمة على ساق ، وكانت دورها في الكرخ وغير الكرخ تكتظُّ بالقيان . ولم يُعَنَّ المجتمع العباسي بفن كما عُنِيَ بالغناء والموسيقى وكانت فيهما مدرستان : محافظة ومجددة ، وكانت المدرسة المحافظة أكثر أنصاراً . وأثر الجوارى حينئذ أثراً كبيراً في شيوع الظرف والرقّة واللفظ . وظلت موجة الجون

والشعبوية والزندقة حادثة في العصر ، وكانت ضاحية الكرخ والبساتين والأديرة تمتلئ  
 بجانات الخمر ، وكان الناس يتمصفون ويمرحون في أعياد الإسلام والمسيحية والمجوس .  
 وكانت نار الشعبوية لا تزال مُتَمَقِدَةً ، وَصَبَّ عليها الجاحظ وابن قتيبة مياهاً كادت  
 تطفئها إلا قليلاً ، ولذلك قلما نسمع بها بعد هذا العصر إنما نسمع عن الإلحاد  
 والزندقة ، ومن رموس الزنادقة الملحدين في العصر ابن الرأوندى ومحمد بن زكريا  
 الرازى . ولم يكن هذا كله الصوت القوي في الأمة ، إنما كان الصوت القوي هو  
 الانصراف عن المجون وكل ما يتبعه من إثم والعكوف على الدين الخفيف والاستماع  
 لوعاظه والانتفاف حول عباده ونسآكه . وهياً ذلك لاتساع حركة التصوف ،  
 وكانت قد بدأت مع أواخر القرن الثاني الهجرى ولكنها تأخذ حثماً في الازدهار بهذا  
 العصر ، إذ أتيح لها أعلامٌ أرسوها ، بحيث أصبحت لها قواعد وأصول ثابتة .

ونشطت الحياة العقلية نشاطاً واسعاً ، وكانت المساجد أشبه بجامعات حرة ،  
 والطلاب يفتنون عليها من كل صوب متحوين من حلته إلى حلته ناهلين ما يشاعون  
 من العلوم اللغوية والشرعية والكلامية . وقامت بجوار المساجد دكاكين الوراقين  
 التي كانت تحفل بكتب العلماء من كل صنف وبما تُرجم من علوم الأوائل  
 وثقافات اليونان والفرس والهند . وتأسست مكتبات كثيرة منها ما كان  
 عاماً مثل خزانة الحكمة ، ومنها ما كان خاصاً لبعض الأفراد .  
 وتُرَوَّى أقاصيص كثيرة عن شغف الناس بالعلم ورحلتهم في سبيلسه  
 وانقضاضهم - حتى العامة منهم - عليه انقضاض الأسد على فريسته ، ولعل ذلك  
 ما جعل الجاحظ وابن قتيبة يحاولان تقريب الثقافة إلى الشعب ، حتى يتزوّد منها  
 بطرق يسيرة سهلة . ويظل نقل الثقافات الأجنبية وخاصة الثقافة اليونانية محتدماً ،  
 ويتطور النقل من النقل الحرفى إلى نقل معانى الفِقَر بحيث تصبح صياغة الكتب  
 المترجمة ناصعة شديدة النضوع . ونهضت العلوم الطبيعية والطبية حينئذ نهضة  
 واسعة ، وليس ذلك فحسب ، فقد أصبح للعرب بدورهم فلاسفة نابهنون مثل الكندى  
 في أوائل العصر والفارابى في أواخره . وتزدهر العلوم اللغوية والنحوية ، فتُشَرِّحُ  
 النصوص القديمة شروحاً موسّعة ، وتوضّع بعض المعاجم ، وينشط تلامذة المدرستين  
 البصرية والكوفية في النحو ، وتنشأ المدرسة البغدادية . وتكثر حينئذ المباحث البلاغية

في بيئات اللغويين المحافظين والمترجمين والمتفلسفة المجددين والمعتزلة المعتدلين ، ويتم الغلب للأخيرين ، ويكتب ابن المعتز كتابه الطريف « البديع » ويخطو النقد خطوات نحو تقنين مبادئه ، ويشاطر فيه الجاحظ مشاطرة قوية يتأثره فيها ابن قتيبة ، ويصدر قدامة كتابه « نقد الشعر » . وتنشط الكتابة التاريخية في السيرة النبوية وفي تاريخ الأمم والدول وتاريخ المدن وسير الرجال وتراجم الشعراء . وينهض علم القراءات ويفرض ابن مجاهد القراء السبعة المشهورين على العالم العربي الذي ارتضى ما أدى في ذلك من جهد علمي خصب . ونهض التفسير بدوره على يد أهل السنة والمعتزلة والصفوية ، وبالمثل نهض تدوين الحديث ، ووُضعت فيه كتب الصحاح الستة . وظلت الدراسات الفقهية مزدهرة ، وظهرت فيها مذاهب صغرى أهمها مذهب داود الظاهري الذي كُتب له الذبوع في الأندلس والمغرب وخاصة في عصر دولة الموحدين . وعلى الرغم من إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ظل لهم نشاطهم ، وظهر بينهم أئمة مرموقون على رأسهم أبو علي الجببائي وابنه أبو هاشم ، وتفرع حينئذ من الاعتزال المذهب الأشعري الذي يتوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، والذي كُتب له الانتشار في العالم الإسلامي .

ويظل للشعر نشاطه وازدهاره ، ويظل اللغويون يقدّمون للشعراء دراسات تمكنهم من إتقان العربية على خير وجه والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية ، ودعم هذا الوقوف مباحثُ النقاد والبلاغيين وملاحظاتهم على الخصائص الجمالية للبيان العربي . وأخذت تنشأ عربية مولّدة ولكنها لم تنجرُ على ألسنة الشعراء ولا أدخلت على أساليبهم شيئاً من الضميمة ، إذ كانوا يتمثلون العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية تماثلاً تاماً . وتعمق الشعراء الثقافات الأجنبية والمباحث الفلسفية ، مما جعل عقولهم تحفل بذخائر خصبة من الأفكار الدقيقة والتقسيمات الطريفة والبعده في الخيال إلى درجة الوهم وكثرة التوليدات العقلية ، وحتى البحترى الذي اشتهر بمحافظته على أصول الصياغة الموروثة للشعر العربي يمسه حظ من الثقافات المعاصرة . وكان حظ ابن الرومي وافرأ ، ولذلك كثرت عنده العلل والأقيسة والأخيلة المبتكرة والقدرة على مدح الشيء وذمه . وظل الشعراء يبالغون في مديح الخلفاء حتى ليسبغون عليهم صفات قدسية ، وسجلوا في مدائحهم البطولات الحربية ،

واحتفظوا فيها أحياناً بوصف الأطلال نافذين إلى الخواطر بديعة . وظلوا يستطردون إلى وصف الصحراء ، واتسعوا في وصف الربيع والطبيعة الحضرية والأعياد وملاهيها . ونشط الهجاء ، وكانوا يعمدون فيه إلى التهوين والتحقيق ، ونفذ فيه ابن الرومي إلى نوع جديد من الهجاء الساخر . وظل الفخر نشطاً ، واحتدم الرثاء ، وتفجعوا على أبنائهم تفجعاً مريراً ، كما تفجعوا على البصرة حين هوت تحت أقدام الزنج . ولابن العتّاف مرثية في هيرّ تُعدُّ من عيون الرثاء ودُرّره . وصوّروا في عتابهم واعتقاداتهم رقة أهل الحضر ودمائتهم . وظل للغزل ازدهاره سواء الغزل العفيف الطاهر أو الغزل المادى الماجن ، ونفذوا فيه إلى كثير من دقائق المعاني والأخيلة ، ولكن كثيرين منهم خمريات تطفح بالمتاع الآثم . ونشط شعر الزهد نشاطاً واسعاً . وأكثروا من التهاني والتراسل بالأشعار مع الهدايا ، وللبحتري وصف رائع لإيوان كسرى . ولهم أشعار كثيرة في وصف قصور الخلفاء وبذخهم في البناء ، وأكثروا من وصف الطبيعة والورود والرياحين ، كما أكثروا من وصف الوحش والصيد وكلابه والأطعمة على اختلاف ألوانها والملاهي ، وفَسَّحُوا للشكوى من الزمن ولوصف الأخلاق ولشعر التصوف وللشعر التعليمي على نحو ما يلاحظ عند ابن الجهم وابن المعتز في نظمهما للتاريخ ، وعند ابن دُرَيْدٍ في نظمه للمعارف اللغوية . وأعلامُ الشعراء في العصر على بن الجهم والبُحْتَرِي وابن الرومي وابن المعتز والصنّـوبـرِي ، فأما ابن الجهم فقرشي الأصل وُلِدَ ونشأ ببغداد ، وفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فدح المعتصم والواثق ويتخذ المتوكل جليساً وندبماً بينما يدبج فيه المدائح والأشعار وقد اندفع وراء المتوكل في الهجوم على المعتزلة والعلويين والنصارى ، فتكاثر خصومه ، وسعوا به عند المتوكل فأمر بحبسه عاماً ، ثم نفاه إلى خراسان . وعاد منها إلى بغداد ثم رأى الاشتراك في نضال البيزنطيين ، ولكنه قُتِلَ دون غايته . وأروع أشعاره ما نظمه في الاستعطاف وليالي الأُنس بالكترخ ، وأكثرها توهجاً تصويره لصلابة نفسه حين سُجِنَ وصلّى نار النّفْى ، وكأنما كان صخرة عاتية لا تستطيع الكوارث والحن أن تمسّ نفسه .

وكان البحتري عربياً شامياً من طيء ، سال الشعر على لسانه مبكراً ، وفي حلب تعرّف بفتاة تسمى علكوة ، ظلت لا تسيّرحُ ذاكرته ، ولقى في حمص أبا تمام حامل لواء الشعر في عصره غير مدافعٍ ، واستمع إلى شعر الفتى الناشئ ،

فشجّعهُ ، وأهداه بعض نصائح كان لها أثر بعيد في شعره . وقد عكف البحترى على شعر هذا الشاعر الكبير يدرسه ويتثله . وقدّمه أبو تمام إلى ممدوحيه ، ونزل سامراء وأصبح شاعر البلاط الرسمي من عهد المتوكل إلى عهد المعتمد . ولم يكد يترك وزيراً ولا موظفًا كبيراً ولا أميراً ولا والياً إلا صاغ فيه مديحه . وهو ممن يمثلون النزعة المحافظة في عصره ، ويعدُّ بحق أستاذ الفن الموسيقي في الشعر العربي ، وكأنما وقف على جميع أسراره ودقائقه ، وأكثر شعره في المديح ، ومن روائع مدائحه مدحته لأحمد بن دينار وفيها صور معركة بحرية بقيادته دُمّر فيها الأسطول البيزنطي . ولم يكن بارعاً في الهجاء ، وله فخر ضعيف . ومراثيه قوية ، وله غزل يترقق فيه الوجد كما يترقق الماء في الغصن ، وكان ماهراً في وصف مظاهر العمران والحضارة والطبيعة .

وكان ابن الرومي يوناني الأصل وُلد ونشأ ببغداد ، وكانت ملكاته خصبة أروع ما يكون الحصب ، وكان شديد الحساسية إلى درجة التطير ، وتروى عنه فيه أقاصيص كثيرة . وكان يتشيع ، ولعل ذلك ما جعل كثيرين يزورون عنه ، كما جعل أبواب الخلداء والوزراء تُغلقُ دونه ، وويلٌ لمن كان يهجوهُ . وتردّد في ديوانه أسماء ممدوحين كثيرين وكذلك أسماء كثيرات من الجوارى والقيان ، واستطاع بماكاته الخصبة أن ينفذ إلى لون ساخر جديد في الهجاء كما أسلفنا ، وله مرث تفيض بالحسرات واللوعات ، وعبابه لأبي القاسم التوزي وحواره مع هَناتِه من أطرف ما نظمهُ شعراء العربية ، وله في الغزل معان وأخيلة نادرة وكان يُشغفُ بالطبيعة وله فيها أشعار رائعة ، وهو يُكثّر من وصف مجالس الأُنس وألوان الطعام ، وله أشعار بديعة في الزهد .

وكلُّ الشعراء السالفين من أبناء الشعب ، أما عبد الله بن المعتز فكان أبوه ابن الخليفة المتوكل وظل في الخلافة نحو ثلاثة أعوام ، وقتله الترك ونفوا أمه قبيحة وابنه عبد الله إلى مكة ، وأعادهما المعتمد إلى سامراء وفيها مضى عبد الله ينهل من كل الثقافات ، وله مصنفات مختلفة أهدبها كتابه البديع ، وكان يحسن الضرب على الآلات الموسيقية ، وله أصوات حملتها العصور بعده ، وله مدائح مختلفة في عميه المعتمد والموفق وفي المعتضد وابنه المكتفي . وكانت مأساته في أبيه وجدّه تصرفه عن التفكير في الخلافة ، ولكن حدث أن تولاهما المقتدر وهو

غلام ، وتُجَمِّع طائفة كبيرة من رجال الدولة على خِلاصه والبيعة لابن المعتز ، ويكون في ذلك حَسَنَةً . وآثار بيئته المترفة واضحة في أشعاره ، وخير مدائحه ومراثيه ما نظمه في ابن عمه وصديقه المعتضد ، وله فخر كثير وفيه يلوِّح من حين إلى حين في وجوه العلويين ، بأن أسرته أحق منهم بميراث الخلافة . وله أشعار كثيرة في الغزل واللهم والحمر وذم الصَّبوح ، وتكثر في شعره التشبيهات والاستعارات كما يكثر وصف الصيد وكلابه وآلاته .

وكان الصَّنَوْبَرِيُّ من أهل أنطاكية ، ولكنه نشأ وتربى في حلب ، وعاش حياته بها إلا فترات كان يتردد فيها على الموصل . وأكثر من المديح ، وكان شيعياً ، وهو لا يَغْلُو في تشييعه ، وانعقدت صداقة بينه وبين كشاجم مواطنه الذي ينزل منه منزلة التلميذ من أستاذه . وفي أشعاره عناية واضحة بصناعاتها ونثر فنون البديع فيها ، وله مدائح كثيرة ، وأروع مراثيه بكاؤه على آل البيت وتفجعه على ابنته ليل ، وله غزل في فتاة مسيحية . ويكثر من وصف الحمر ، وله أشعار في الزهد ، وأهم موضوع شغله واشتهر به وصف الطبيعة حتى ضرب المثل بروضياته ، وله غناء كثير بالثلجيات ، ويُعَدُّ فاتح هذا الباب في العربية ، وله أشعار بديعة في وصف الديك والصيد والنهر والجُرْدَان ، مما يشهد بملكته التصويرية الدقيقة .

وتكاثر شعراء السياسة والمديح والهجاء في العصر ، وفي مقدمتهم شعراء الخلفاء العباسيين ، إذ كانت أموال الدولة بأيديهم ، فكثر مدائحهم حتى بين الشيعة ، ولكل خليفة شعرائه الذين أشادوا به وبأحقية بيته في ميراث الخلافة ، ومن أهمهم مروان بن أبي الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولي ، أما مروان فكان يسير سيرة جدّه مروان بن أبي حفصة في الطعن على البيت العلوي ، مما جعل المتوكل يغضبه بعطاياه ، وكان يُعَنَى مثل جدّه بصقل أشعاره . وكان علي بن يحيى المنجم من أصل فارسي ، وهو مثال للنديم المثقّف ثقافة واسعة ، وله شعر كثير في مديح الخلفاء والوزراء وفي تصوير سمو نفسه . وكان أبو بكر الصولي التركي الأصل من بيت علم وكتابة ، وفتحت له ثقافته الواسعة ومهارته في لُعبة الشطرنج أبواب القصور العباسية منذ خلافة المعتضد ، وخير مدائحه ما نظمه في الخليفة الراضي ، وله غزل رقيق كثير . وكان شعراء البيت العلوي يقفون مدافعين منافحين عنه ، وأهمهم

في العصر محمد بن صالح العلوي والحماني والمفجّع البصري ، وكان محمد بن صالح قد ثار بالحجاز ، وزجّ به المتوكل في غياهب السجون ، ثم عفا عنه وعاش في سامراء يمدحه ، وله أشعار طريفة في زوجه وفي بعض أصدقائه . وكان الحماني نقيب العلويين في الكوفة وله مرث كثيرة ليحيى بن عمر العلوي يبكيه فيها بكاء حاراً . وكان المفجّع شيعياً إمامياً ، وكان يُكثّر من مديح علي وأبنائه . وكثرت الثورات السياسية في العصر ، وكان بعض الثوار شاعراً مثل صاحب الزنج فله أشعار تدور في كتب التاريخ والأدب ، ومثله يحيى بن زكرويه القرمطي الثائر بالشام وأبوطاهر الجنّابي صاحب الأحساء والبحرين . وأهم شعراء الثورات محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبي دلف ، أما ابن البعيث فنثار بأذربيجان ، واستطاع حين أتى به أسيراً إلى المتوكل أن يستلّ غضبه بشعره فيعفو عنه . وأما حفيد أبي دلف فنثار بأعمال الجبل بين همدان وأصفهان ، وله أشعار مختلفة يتهدّد بها قواد المعتضد وينذرهم - إن هاجموه - إنذارات خطيرة . ويكثّر كثرة مفرطة شعراء الوزراء والولاة والقواد ، وفي مقدمتهم أبو علي البصير وابن أبي طاهر وابن دريد ، ولأولهم مدائح كثيرة في الفتح بن خاقان وله مداعبات ومعان طريفة في الغزل وفقد بصره وشيخوخته . ولابن أبي طاهر مدائح كثيرة في الوزراء ، وله أهاج لاذعة . واشتهر ابن دريد بمدائحه لابن ميكال والى الأهواز ، وخاصة بمقصودته فيه وقد شرحت مراراً وتكراراً . وخمد في العصر الهجاء القبلي ، وظل الهجاء الشخصي محتدماً ، ومن أكبر الهجائيين في العصر الصيمري ، ونجبه مع المتوكل والبحتري مشهور . وأشدّ إيلاماً ووخزاً منه في الهجاء الحمدوني ، وقد دارت على كل لسان في عصره أهاجيه في طيلسان ابن حرب وشاة سعيد بن أحمد . وهجاء العصر غير منازع ابن بسّام ، وله في أبيه أهاج كثيرة ، ولم يكد يترك خليفة ولا وزيراً ولا أميراً ولا كبيراً في عصره دون أن يكوّبه بميسم هجائه .

ويكثر شعراء الغزل وشاعراته ، ويظل الغزل العفيف حياً حياة خصبة بجوار الغزل المادى الصريح ، ويكثر الناظمون للغزل من كل الأوساط ، وكثيرات من الجوارى في العصر كن يسنّظمنه ويتقنّ نظمه ، وأشهر شعراء الغزل حينئذ خالد ابن يزيد الكاتب ومحمد بن داود الظاهري وفضل الشاعرة وكان خالد كاتباً في الدواوين ، وله رقائق غزلية كثيرة يصور فيها حباً ظامناً لا يروى أبداً ، أما

محمد بن داود فكان فقيهاً ظاهرياً وغزله أفلاطوني نقي طاهر ، وكانت فضل من مولدات البصرة ، وهي أشعر الجوارى في عصرها ، ولها معاتبات ومراسلات كثيرة مع سعيد بن حميد . وكان كثير من الشعراء ينغمس في اللهو والمجون ، وكانوا يترافقون في الديارات وفي الحانات وفي دور النخّاسين ومن أكثرهم خلاعة ومجوناً الحسين بن الضحّاك وأبو الشَّيْبَلِ البُرْجُمِيِّ وعبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع . ونادم الحسين غير خليفة ، وهو فارسي الأصل ، وتَشْيِيعُ في غزلياته ونحرياته عدوبة مفرطة ، ولا يلحقه أبو الشَّيْبَلِ في تلك العدوبة ولا في خفة روحه . وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع يُسْرَفُ في الخلاعة والمجون ، وله أشعار في نصرانية هام بها هياماً شديداً ، وشعره مثل شعر الحسين بن الضحّاك وافر الموسيقى . وكان يقابل شعراء الخمر والمجون شعراء الزهد والتصوف ، وكانوا أقرب منهم إلى قلوب العامة التي كانت تعيش على شطف العيش وتعرف ربّتها وتقيه في السر والعلن ، ويتغنّى كثيرون بأشعار زاهدة ، ويتكاثرون المتصوفة ويتكاثرون شعرهم في المحبة الإلهية والفناء في الذات العلية . ويظهر الحلاج الذي تمثل في نفسه الحقيقة الإلهية ، مع إيمانه بتزيه الله واتحاد الناسوت وهو الروح الإنساني في اللاهوت وهو الروح الإلهي على نحو ما يصور ذلك كتابه الطواسين وما فيه من حديث عن هذا الاتحاد ، وهو أول من أعدّ لفكرة الحقيقة المحمدية وأن الأديان جميعاً تؤدي إلى الله جلّ جلاله . وكان الشَّيْبَلِيُّ الصوفي لا يغلو غلوه ، إذ كان تصوفه سُنِيّاً ، مما جعله ينحى عن نفسه أفكار الاتحاد والشهود ، ومع ذلك كان يكثر من الحديث عن الأحوال والمقامات ، وكان يؤمن بفكرة الفناء في الذات الإلهية . ويلقانا في العصر شعراء كثيرون ينظمون في الطرد والصيد ، وكان هواً ومتاعاً للخلفاء والوزراء وعلية القوم ، وكانوا يخرجون إليه في مواكب ومعهم الشعراء وكادوا لا يركون ضارياً من ضواري الصيد ولا جارحاً من جوارحه إلا نعتوه ، كما نعتوا الصيد من حُسْر الوحش وأتته وثيرانه وبقرة وظبائه ونعامه وأرانبه والطيور والإوز ، وبالمثل نعتوا آلاته من النَّسْبِلِ والسهم والفيحّاخ والشياك والبندق . ومن أهم الشعراء الذين شغفوا بوصف الصيد والقنص أبو العباس الناشئ ، وكان من المعتزلة ، وكان عالماً وناقداً كما كان شاعراً بارعاً ، وقد اعتمد كشاحم على أشعاره في صنع كتابه المصايد والمطارد مما يدل بوضوح على كثرة نظمه في الطرد والصيد ، وله أشعار

بديعة في وصف الكلاب والبزاة والشاهين والطيور وأيضاً في وصف الأسد وكانوا يفتخرون طويلاً بصيده . ويكثر في العصر شعراء النزعات الشعبية ، وخاصة شعراء البؤس المكدين وغيرهم ممن صوروا ضيق الحياة وما يجرى فيها من صنك شديد ، وصور كثير من التحامق في صور هزلية . ولا يبارى جحظة البرمكى - الضارب على الطنبور - في تصوير تعاسة الطبقة العامة ، وكثيراً ما صبَّ سياطه على الحكام الفاسدين . ويمثل الخبز أرزى هذه الطبقة فقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولغته حلوة خفيفة ، وكان مواطنوه في البصرة يشغفون بأشعاره شغفاً شديداً .

وازدهر في العصر النثر ازدهاراً عظيماً ، وقد ظلت حركة الترجمة ناشطة ، وشاع الاستواء والتناسق فيما تُرجم من آثار ، وظهر الكندي أول فيلسوف للعرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلسفة ، وكان شاعراً وناثراً ممتازاً إذ كان يتمثل العربية ودقائقتها وخصائصها تمثلاً بارعاً . وأخذت بينات مختلفة تتجادل في معايير البلاغة العربية ، فكانت هناك بيئة محافظة مثلها للغويون ، وبيئة تفرط في التجديد مثلها المترجمون ، وبيئة معتدلة مثلها المتكلمون ، وهي التي كتبت لها السداد والنجاح ويمثلها الجاحظ وما وضع للبلاغة والبيان العربي من مقاييس فنية . وأبلى اللغويون بلاء حسناً في تثقيف الناشئة والأدباء باللغة والشعر ويتأثر بهم ابن قتيبة في كتابه « أدب الكاتب » الذي وضعه نبراساً للكتّاب يهتدون به . ويصنّف إبراهيم بن المدبر رسالة بديعة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة . وتحاول بيئة المترجمين والمتفلسفة أن تضع تشريعاً لمقاييس البلاغة العربية في النثر على ضوء المقاييس اليونانية ، ويكتب في ذلك ابن وهب كتابه : « البرهان في وجوه البيان » ولا يقف عند الاحتكام إلى كتاب الخطابة لأرسطو ، بل يحتكم أيضاً إلى كتابيه في المنطق والجدل . غير أن الأدباء في عصره وبعد عصره ازوروا عن كتابه ومنهجه ، وساد بينهم منهج المدرسة الكلامية وذوقها الأدبي العام الذي مثلته الجاحظ في كتاباته خير تمثيل . وضعفت الخطابة في العصر ، ولكن المواعظ لم تضعف ، بل ازدادت اضطراماً على أيدي المتصوفة ، وأخذت تنتشر لهم حكايات وأقاصيص كثيرة تصور جهادهم في قمع شهوات النفس ومطالبها من لذات الحياة ، وتداولها الناس بحيث أصبحت ضرباً من ضروب الأدب الشعبي حينئذ ، كما تداولوا عنهم حكايات كثيرة عن كراماتهم وأخبارهم . وليس ذلك فحسب ، فإن

بعض المتصوفة كتب في تصوفه مقالات ثرية بجانب ما كتب من أشعار على نحو ما يلاحظ في كتاب الطواسين للحلاج . وكثرت المناظرات في العصر بين المتكلمين وكذلك بين الفقهاء ، ومناظرة الحسن بن عبد الله السيرافي ومتي بن يونس في النحو والمنطق مشهورة ، وبالمثل مناظرات اللغويين . وكأنما أصبحت المناظرات لغة العصر الفكرية حتى ليعتدوا كثير من الكتب باسم الرد أو النقص ، وشاعت هذه الروح في قصص وأخبار جمعت ونسقت في كتابي المحاسن والأضداد والمحاسن والمساوى ، وهما كتابان نفيسان ، تلتقى فيهما الثقافات العربية والإسلامية والأجنبية ومأثورات قصصية كثيرة عن الفرس والهند واليونان . وطبيعي أن تظلل الرسائل الديوانية ناشطة في العصر فقد كانت الدواوين تجذب إليها كتّاب العصر البارعين من أمثال عميد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وأحمد بن الخصب وزير المنتصر . ونبغ بعض الولاة في كتابة تلك الرسائل مثل محمد بن عبد الله بن طاهر ، ومن كتابها النابيهين لعهد المهتدي سعيد بن عبد الملك . وارتقى كاتب من كتابها المرموقين إلى مرتبة الوزارة في عصر هذا الخليفة هو سليمان بن وهب ، وكان ابنه عميد الله وحفيده القاسم من كبار الوزراء ونابهى الكتّاب . ويشيع السجع في الرسائل الديوانية لعصر المقتدر ، ويصبح منذ هذا التاريخ ظاهرة عامة لا تخلو رسالة من وشبهه وزخارفه . ويظل للرسائل الإخوانية نشاطها بدورها ، ولا تترك موضوعاً للشعر إلا وتشاركه فيه ، ويشيع فيها السجع مبكراً ، وتلقانا بعض رسائل مسجوعة سجعاً خالصاً ، منها رسالة طويلة لأبي علي البصير كلها هجاء مرير . وكان أبو العيّناء يسجع في رسائله الشخصية . وكان ابن مكرم لا يشيع السجع في رسائله ، ولكن ألفاظه كأنها درر مختارة سواء في اصطفاء اللفظ أو فيما يوشئها به من زخرف البديع . وكان أحمد بن سليمان بن وهب يسجع في رسائله بينما كان يتخفف منه ابن أبي طاهر ، ومثله ابن المعتز . وتنشط كتابة الرسائل الأدبية ، وكان الجاحظ يشيع فيها أسلوب الازدواج ، على حين نجد ابن المعتز في رسالة طريفة يمدح فيها سامراً ويذم بغداد يملؤها بالسجع وألوان البديع وزخارفه . وكان ذلك كله كان إرهاباً بأن السجع سيعم مع أواخر القرن في جميع الرسائل سواء أكانت أدبية أو إخوانية أو ديوانية .

وأعلامُ الكتاب في العصر إبراهيم بن العباس الصولي والجاحظ وابن قتيبة وسعيد ابن حُمَيْد وأبو العباس بن ثوبة . وقد ولد إبراهيم بن العباس ونشأ ببغداد ، وظهرت فيه مخايل الأدب مبكرة ، فالتحق بدواوين الفضل بن سهل ، وظل يعمل في دواوين الدولة وولاياتها حتى نكبه ابن الزيات وزير المعتصم والواثق وسجنه ، وعفا عنه الواثق ، حتى إذا كان عهد المتوكل ابتسمت له الدنيا ، فقلّده ديوان الرسائل ودواوين مختلفة ، وظل يكتب كل ما يصدر عن المتوكل من منشورات وفتوح وعهود لأولياء العهد وتهنئات بالأعياد . وكثير من ذلك كله احتفظ به الطبري ، وهو بصور عناية بتقطيع العبارات واصطفاء الألفاظ واستخدام بعض ألوان البديع دون إفراط ، وقد يضيف إلى ذلك أحياناً اجتلاب بعض الأسجاع . وفي تحميداته ما يدل على ثقافة اعترالية واضحة . وكان يوازن بين عباراته موازنات دقيقة في الصوت والجرس والأداء ، كما كان يعنى أشد العناية بمعانيه ، حتى تروق كتاباته اللسان والحنان ، وقد تصبح بعض القطع عنده سجعاً خالصاً .

والجاحظ أكبر كتّاب العصر ، بل أكبر كتّاب العربية قاطبة ، وقد نشأ بالبصرة وتمثّل كل ما كان فيها من معارف ، وهو معتزلي كبير بل صاحب مذهب اعترالي قائم بنفسه سُمّي الجاحظية نسبة إليه . وهو لا يبارى في وضوح كتاباته وقدرته على التوليد في المعاني ، واستنباط خفياتها ودقائقها . وقد صور في أعماله مجتمعه بجميع طبقاته العليا والوسطى والدنيا . وكان يُعنى بصياغته عناية كاملة ، واستطاع أن يفرض على العربية أسلوبه الذي ابتكره ، ونقصد أسلوب الأزواج ، وحقاً نجد له مقدمات عند غيره ، ولكنه هو الذي استمسك به وأشاعه في جميع آثاره ، مع روح الدعابة التي يتميز بها ومع الاستطرادات الكثيرة حتى لا يمل القارئ . وقد عرضت خمسة ألوان من كتاباته : اللون الأول المناظرات واخترت مناظرة معبد والنظام التي وضعها في أوائل كتابه الحيوان واحتلت فيه نحو مجلد ونصف ، وهي لاشك من عمله إذ جميعها بصياغته وأسلوبه . واللون الثاني رسائله الشخصية وهي حافلة بمهارته في استنباط الأفكار وجمال أسلوبه . ومثلها اللون الثالث وهو رسائله الأدبية الباهرة . واللون الرابع والخامس هما القصص والنوادر ، إذ كان قصاصاً ممتازاً كما كان بارعاً في سرد النوادر .

وأكبر مؤلّف أدبي ظهر في العصر بعد الجاحظ ابن قتيبة ، وهو بحكم

ثقافته الدينية يبدو محافظاً في بعض آرائه النقدية ويشتهر بسياطه التي ألهم بها ظهور الشعوبيين، وأهم أسلحته الحربية التي اتخذها ضدهم في رأينا أنه حاول في كتابه « عيون الأخبار » المزج بين الثقافات الإسلامية والعربية والفارسية واليونانية والهندية مزجاً أسقط به الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب ، فليس هناك ما يسمى فارسياً مستقلاً أو هندياً أو يونانياً أو إسلامياً أو عربياً ، بل هي ثقافة واحدة ، وهي ثقافة تشمل أيضاً ما عند أهل الكتاب ، فكل الثقافات دينية ومدنية تستحيل إلى هذه الصورة الجسدية التي صاغها ابن قتيبة ، بحيث خفّت صوت الشعوبية ، فكل ما كانت تفتخر به على العرب أصبح من صميم العربية . وصاغ ابن قتيبة ذلك في أسلوب أدبي ناصع يمتاز بالوضوح وانتخاب الألفاظ الرصينة واستخدام الازدواج محاكاة للجاحظ أحياناً والاسترسال أحياناً أخرى . وقد يجرى السجع على لسانه ، ولكن دون أى تكلف ، ويتشبه بالجاحظ أحياناً في نقل الواقع وفي خلط الجحد بالهزل وإيراد بعض النوادر .

وسعيد بن حميد من أصل فارسي ، عني أبوه بتثقيفه والتحق بالدواوين وتألّق نجمه فيها حتى أصبح رئيساً لديوان الرسائل في عصر المستعين ، وينص الطبري على بعض ما كتبه من رسائل ديوانية ، وكان يعنى أشد العناية بانتخاب ألفاظه وتقطيعها وتقابل الكلمات ، وقد يتكامل التقابل والتقطيع حتى يصبح الكلام سجعاً ، وله يجانب رسائله الديوانية رسائل إخوانية بنفس الأسلوب الذي وصفناه ، ونحس عنده دائماً رغبة قوية في النفوذ إلى أفكار مبتكرة ، حتى لتصبح الرسالة ضرباً من الحيل العقلية يروع بطرافته ، مع دقة التعبير وجماله .

وأبو العباس بن ثوية من أسرة أصلها مسيحي ، عملت في دواوين السدولة العباسية ، وتميّز هو من بين أفرادها في منتصف القرن الثالث الهجري إذ التحق بدواوين الدولة ، وما زال يصعد في مراتبها حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل ، وله عهد طريف إلى أحد الولاة كتبه عن الموفق ، وهو يصور فساد الحكم حينئذ ، كما يصور عمل صاحب الحسبة ، وله رسائل إخوانية مختلفة ، يتضح فيها الحس المفرط والشعور الحاد كما يتضح السجع مضيئاً إليه مادة تصويرية بديعة .